مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

دور السلطة المملوكية في مواجهة العنف والعنف المضاد في مصر (القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) أنموذجاً ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

د/ شيرين أحمد علي العدوي

مدرس بكلية الإعلام

جامعة أكتوبر للعلوم الحديثة والآداب

DOI: 10.21608/qarts.2025.384505.2219

مجلة كلية الآداب بقنا – جامعة جنوب الوادي – المجلد (٣٤) العدد (٦٩) أكتوبر ٢٠٢٥

الترقيم الدولي الموحد للنسخة المطبوعة ISSN: 1110-614X

الترقيم الدولي الموحد للنسخة الإلكترونية ISSN: 1110-709X

موقع المجلة الإلكتروني: https://qarts.journals.ekb.eg

دور السلطة المملوكية في مواجهة العنف والعنف المضاد في مصر (القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين) أنموذجًا ٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م

الملخص:

تأتي أهمية هذا البحث لتوضيح دور الدولة في مواجهة العنف والعنف المضاد من الطرفين، لتعود البلاد لممارسة الحياة الاجتماعية كما كانت دون خلل. وربما يكون ذلك موضوعا جديداً في مجال البحث الأكاديمي وبخاصة أن الدراسات السابقة قد أفاضت في الحديث عن مساره السياسي والعسكري، وإن كان البعض منها قد لامس الجانب الحضاري منه، فإنها أسهبت في الحديث أيضا عن فترات قوته، وصعود دولة المماليك إلى مكانة مميزة بين دول العالم؛ لكنها في مقابل ذلك أهملت الحديث عن فترات ضعفه وانتكاساته، فظلت مثل هذه الجوانب حلقة من حلقات التاريخ المنسي لم تنل الحظ الأوفر من الدراسة، عدا أنها ظهرت ضمنا في ثنايا بعض البحوث والدراسات التي اهتمت هي الأخرى – في غالبها – بتوصيف حال المجتمع إبان الأزمة بمصطلحات متعددة دون تحديد ماهية أي من هذه المصطلحات.

ويمكن معالجة هذا الموضوع من خلال نقاط عدة وهي: تعريف العنف والعنف المضاد لغة واصطلاحا، المكون الديني للمجتمع المصري في العصر المملوكي، العلاقات بين أبناء مصر المملوكية، مسببات العنف والعنف المضاد وفق مسببات وأحداث ونتائج سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، اضطرابات سنة٧٢١هـ/١٣٢١م وما شهدته من عنف وعنف مضاد وآثار ذلك ونتائجه ودور الدولة حياله؛ مفهوم حريق القاهرة ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، القلاقل والعنف المضاد سنة٧٥٥هـ/١٣٥٤م ومواجهة الدولة لها، موقف ملك الحبشة من هذه الأحداث وَردّ دولة المماليك عليه.

الكلمات المفتاحية: العنف، العنف المضاد، المملوكي، الدولة، مصر.

مقدمة:

شهدت مصر في عصور السيادة الإسلامية مثل غيرها من الأقاليم الجغرافية الأخرى مشاحنات وقلاقل أهلية عديدة؛ عرفت البلاد على إثرها سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، ونظرًا لأن فترة العصور الوسطى عرفت بعصور الإيمان في العالمين الإسلامي والمسيحي الغربي، فكانت تحدث بعض المشاحنات بين أبناء الوطن الواحد لسبب ما، ومن هنا برز دور سلاطين المماليك في العمل على استقرار البلاد وجمع شمل أبناء الدولة المملوكية. فمن المعروف أن المسيحيين جزء أصيل من المجتمع المصري، وليس دخيلًا عليه، وكذلك معظم المسلمين جزء أصيل من المجتمع المصري؛ ولهذا نجد لغة واحدة في مصر كلها، فالمسيحيون جزء من صميم الجسم المصري الكبير شديد التماسك والالتحام به، ولقد فشلت كل محاولات الاستعمار في خلق مشكلة يضرب بها الوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين عبر التاريخ؛ ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث لتوضيح دور الدولة في مواجهة العنف والعنف المضاد من الطرفين، لتعود البلاد لممارسة الحياة الاجتماعية كما كانت دون خلل.

وربما يكون ذلك موضوعا جديداً في مجال البحث الأكاديمي وبخاصة أن الدراسات السابقة قد أفاضت في الحديث عن مساره السياسي والعسكري، وإن كان البعض منها قد لامس الجانب الحضاري منه، فإنها أسهبت في الحديث أيضا عن فترات قوته، وصعود دولة المماليك إلى مكانة مميزة بين دول العالم؛ لكنها في مقابل ذلك أهملت الحديث عن فترات ضعفه وانتكاساته، فظلت مثل هذه الجوانب حلقة من حلقات التاريخ المنسى لم تنل الحظ الأوفر من الدراسة، عدا أنها ظهرت في ثنايا بعض البحوث

والدراسات ضمنا تلك التي اهتمت هي الأخرى – في غالبها – بتوصيف حال المجتمع إبان الأزمة بمصطلحات متعددة دون تحديد ماهية أي من هذه المصطلحات.

ويمكن معالجة هذا الموضوع من خلال نقاط عدة وهي: البدء بتعريف العنف والعنف المضاد لغة واصطلاحاً ، المكون الديني للمجتمع المصري في العصر المملوكي, العلاقات بين أبناء مصر المملوكية, مسببات العنف والعنف المضاد وفق مسببات وأحداث ونتائج سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م، اضطرابات سنة٧٢١هـ/١٣٢١م وما شهدته من عنف وعنف مضاد وآثار ذلك ونتائجه ودور الدولة حياله؛ مفهوم حريق القاهرة ٧٢١هـ ١٣٢١م، القلاقل والعنف المضاد سنة٧٥٥هـ/١٣٥٤م ومواجهة الدولة لها، موقف ملك الحبشة من هذه الأحداث وَردّ دولة المماليك عليه، الخاتمة، قائمة المصادر والمراجع.

ويقصد بالعنف موجة الغضب العارمة التي تتسبب فيها بعض الممارسة الخاطئة من طائفة ما. والعنف المضاد هو: ردة الفعل المبالغ فيها تجاه هذا العنف الذي ابتدأ به. و في لسان العرب فقد عرف العنف بأنه خرق الأمر، وقلة الرفق به.

المكون الديني للمجتمع المصري في العصر المملوكي(٩٣٢-٦٤٨هـ/١٢٥٠-١٥١٧م):

قبل أن يخوض البحث في مسببات المشاحنات التي حدثت بمصر زمن المماليك، تجدر بنا الإشارة إلى أن المجتمع المصري في العصر المملوكي كان يضم مسلمين سنة وهم الأغلبية وشيعة من بقايا دولة الفواطم، كما ضم المجتمع المصري أهل الذمة وكانوا من المسيحيين واليهود. أما المسيحيون فكانوا من القبط اليعاقبة، أصحاب المذهب المونوفيزتي أو من الملكانيين أصحاب المذهب الدوفيزيتي. ويمثل القبط اليعاقبة الأغلبية العظمى بين أهل الذمة في مصر، بينما كان الملكانيون أقلية ضئيلة. وقد ظهرت في

مصر طائفتان أخريان من المسيحيين اليعاقبة وهما: السريان من سكان بلاد الشام، والأرمن من سكان أرمنيا. وأما اليهود فكان منهم: الربانيون، والقراءون[١] .

وشهدت المصادر على أن هؤلاء جميعا اشتركوا معاً في صنع التطور الحضاري بمصر زمن سلاطين المماليك، واحتفلوا سويًا بالاحتفالات القومية وتبادلوا التهاني. لاسيما ما هو متوارث منها عند المصريين عبر الأزمنة خاصة ما اتصل بنيل مصر قوام الحياة. ومن جانبها اهتمت الدولة المملوكية (على المستوى الرسمي) بالمظاهر الاحتفالية بالأعياد والمناسبات اهتمامًا كبيرًا[٢]، بتوزيع الحلوى على جميع موظفي الدولة وإقامة الموائد الضخمة التي تحوي كل ما لذ وطاب، ومن جانبهم تفنن المصريون على اختلاف دياناتهم في الطقوس الاحتفالية[٣]. بعدما أدرك المماليك حب المصريين لتلك الاحتفالات التي تجمعهم جنبا إلى جنب؛ فلجأوا إلى البحث عن مزيد من الأسباب التي تقربهم من الشعب الذي يحكمونه، كي تتوثق الصلة بينهم وبينه، فعملوا على إدراك الشعب لصفات كفاءتهم العسكرية، وتفانيهم في خدمة المصلحة العامة، ومراعاتهم لحقوق

---

[١]) قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة في مصر في العصور الوسطي دراسة وثائقية ، ط ٢ ، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٧٩ م ، ص١٢٦؛ اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثمانى ، ط١ ، القاهرة ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ م , ص ٦٠ .الربانيون: تيار يهودي يؤمن بقدسية التوراة المكتوبة والتوراة الشفهية. الربانيون يؤمن بقداسة التوراة المكتوبة وحدها ويرفض التلمود والتفاسير الشفوية. السابق، نفسه.

[٢]) المقريزي، الخطط، ج٢ ص ١٦٤

[٣])ابن المأمون : جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي (ت ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م). نصوص من أخبار مصر ، حققها وكتب مقدمتها وحواشيها ووضع فهارسها أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ، المعهد العلمي ، الفرنسي للآثار الشرقية ، (د . ت)ص ٩٥؛ عبدالمنعم ماجد، نظم ورسوم الفاطميين في مصر، ط ٣ ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٨م ج٢ص١٣١-.١٣٦ .

الرعية؛ من تقديمهم المساعدة لعامة الناس، وتحديدهم أسعارا مناسبة لمختلف الحاجات الضرورية في الأسواق[٤].

العلاقات بين أبناء مصر المملوكية:

عاش أهل ذمة مصر في حال حسنة، وعُوملوا معاملة طيبة منذ الفتح الإسلامي عدا القليل من التوترات التي كانت تحدث أحياناً بين الطرفين، واستمرت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة سائدة طوال عصر الطولونيين والإخشيديين حتى وصل أهل الذمة في العصر الفاطمي إلى أرفع المناصب في الدولة، ومع بداية العصر الأيوبي أدخل صلاح الدين الكثير من أهل الذمة في خدمته، وسار على إثره ملوك بني أيوب[٥] ، وعلى رأسهم السلطان الكامل بن العادل الأيوبي الذي أظهر روحاً نادرة في التسامح تجاه أهل الذمة لم تكن مألوفة في ذلك الوقت بحكم الحروب بين المسلمين والصليبيين في ذلك الوقت، وقد سار ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب على نفس المنوال[٦].

وكان من الطبيعي أن تسبب حملة لويس التاسع على مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، والحروب مع الإمارات الصليبية في بلاد الشام توتراً في العلاقات الودية بين الطرفين، وأن يوجه بعض عوام المسلمين انتقامهم إلي عدد من كنائس

---

[٤] مصطفى وجيه مصطفى، احتفالات الحج المصرية عصر سلاطين المماليك، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية (القاهرة)٢٠١٤م ص ٢٢

[٥] سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص٤٢.

[٦] ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص١٨٧.

مصر[٧]، كما حدث في سنة٦٧٥هـ/١٢٧٦م تقريباً عندما دخل الشيخ خضر[٨] كنيسة الإسكندرية فأخذ ما فيها وصيرها مسجداً وسماه المدرسة الخضراء[٩]، ويمكن فهم ما حدث على أنه كان انتقاماً منه على ما فعله النصارى من حرق بعض ممتلكات المسلمين في القاهرة سنة٦٦٣هـ/١٢٦٥م، وقد قام بهذا العمل على أساس أن الإسكندرية فتحت عنوه على قول أكثر المؤرخين سواء من قالوا : إن مصر فتحت صلحاً أو عنوة. فإن الكنائس التي فتحت عنوة يجوز هدمها، وللإمام الحق في أن يبقيها إذا رأى مصلحة في ذلك[١٠]. وبالطبع هذا من حق الإمام وليس من حق العامة حتى ولو كانوا من علماء الدين، وحوادث الاعتداء هذه سواء كانت من قبل المسلمين أو النصارى كان ينظر إليها على أنها حوادث فردية يجب أن تمر بسلام ولا يتم إثارة الرأي العام بسببها، وخلا هذه الحادثة لا تذكر المصادر التاريخية عن نشأة الدولة المملوكية حتى سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م أي شيء من حدوث توتر بين الطرفين.

---

(٧) لينبول: سيرة القاهرة، ص١٨٧.

(٨) هو خضر بن أبي بكر المهراني العدوي، شيخ الملك الظاهر بيبرس كان يعتقد فيه، وقد اتهمه جماعة عند السلطان ورموه بفواحش عظيمة، فأمر باعتقاله وسجنه حتى يموت، فاستمر في محبسه حتى مات في سنة٦٧٦هـ/١٢٧٧م. انظر: اليونيني(قطب الدين موسى بن محمد ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م): ذيل مرآة الزمان، ج٣، تحقيق: وزارة التحقيقات والأمور الثقافية بالهند، دار المكتب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م، ص٢٦٧.

(٩) اليونيني: المصدر السابق، ج٣، ص٢٦٨؛ المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، تحقيق: محمد زينهم عزب، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م، ص٦١٠؛ ابن تغري بردي(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: فهيم محمود شلتوت وجمال محمد محرز، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩م، ج٧، ص١٦٢.

(١٠) ابن القيم(شمس الدين محمد بن أبي بكر ت:٧٥١هـ/١٣٥٠م): أحكام أهل الذمة، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص١٢٩.

مسببات وأحداث ونتائج العنف والعنف المضاد سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م:

كان التطور الأكبر في هذه العلاقة هو ما حدث في شهر رجب سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م) عندما قدم وزير سلطان المغرب إلى القاهرة، يدلل ابن القيم على هذا بحادثة قال فيها : "وبينما هو بسوق الخيل تحت القلعة، وإذا برجل راكب على فرس وعليه عمامة بيضاء وفرجية مصقولة وجماعة يمشون في ركابه وهم يسألونه ويتضرعون إليه ويقبلون رجليه، وهو معرض عنهم وينهرهم ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه، ولم يزده ترجيهم له ذلك إلا عتواً، فرق لهم المغربي وهم أن يخاطبه في أمرهم فقيل له: إنه نصراني، فغضب لذلك وكاد أن يبطش به، ثم كف عنه وطلع إلى القلعة، وجلس مع الأمير سلار نائب السلطنة، والأمير بيبرس الجاشنكير، وأخذ يحدثهم بما رآه ويبكي رحمة بالمسلمين وما ينالوه من قسوة النصارى، ثم وعظ الأمراء وحذرهم من نقمة الله، وتسليط عدوهم عليهم من تمكين النصارى من ركوب الخيل، وتسليطهم علي المسلمين وإذلالهم إياهم، وأن الواجب حملهم على العهد العمري[١١] فمالوا إلى قوله،

---

(١١) الشروط العمرية : ينص هذا العهد في صيغته التي كُتب بها في سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م أيام الناصر محمد ابن قلاوون على" أن لا يحدثوا في البلاد الإسلامية وأعمالها ديراً ولا كنيسة ولا صومعة، ولا يجدد منها ما خرب، ولا يمنعوا أن ينزل عليهم أحد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونه، ولا يكتموا غشاً للمسلمين، ولا يعلموا أولادهم القرآن، ولا يمنعونهم من الإسلام إذا أرادوا، وإن أسلم أحدهم لا يؤذوه، ولا يتشبهوا بشيء من ملابس المسلمين، ويلبس النصراني من العمامة الزرقاء ثلاثة أذرع فما دونها، واليهودي العلامة الزرقاء= =كذلك، وتمنع نسائهم من التشبه بنساء المسلمين، ولا يتسموا بأسماء المسلمين وألقابهم، ولا يركبوا الخيل والبغال، ويسمح لهم بركوب الحمير بدون زينة، ولا ينقشوا خواتمهم بالعربية، ولا يدخلوا الحمام إلا بعلامة تميزهم في عنقهم من حديد أو نحاس أو غير ذلك، ولا يستخدموا مسلماً في أعمالهم، ولا يعلوا بناء قبورهم، ولا يعلوا في البناء على بناء المسلمين، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفا، ولا يرفعوا أصواتهم في كنائسهم، ولا يشتروا من الرقيق مسلماً ولا مسلمة، ولا يمشوا وسط الطريق توسعة للمسلمين، ولا يفتنوا مسلما عن دينه، ولا يدلوا على عورات المسلمين، ومن زنى بمسلمه قتل، وكل من مات من اليهود والنصارى والسامرة في سائر المملكة يحتاط ديوان المواريث الحشرية علي ماله إلي أن يثبت ورثته ما

يستحقونه وفق الشرع الحنيف، فإذا استحق يعطونه بمقتضاه وينقل الباقي إلى بيت المال، ومن مات ولا وارث له يحمل تركته إلى بيت المال شأنهم في ذلك شأن المسلمين".

هذه البنود التي وضعها الفقهاء كلها مبنية علي نص العهد الذي أعطاه نصارى الجزيرة لعبد الرحمن بن غنم ورضي به عمر بن الخطاب، وهذا النص الذي بني عليه الفقهاء هذه النصوص غير صحيح تاريخياً لأن الذي فتح كل أراضي الجزيرة هو عياض بن غنم وليس عبد الرحمن بن غنم، وأنه صالح أهل الرها وهم من أهل الجزيرة على الأمان لأنفسهم وكنائسهم، وقد ذكر البلاذري(ت:٢٧٩هـ/٨٩٢م) نص هذا الأمان فقال: "هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم لا تخرب ولا تسكن، إذا أعطوا الجزية التي عليهم، وعلى ألا يحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يظهروا ناقوسا شهد الله"، وبقية بلاد الجزيرة على هذا المنوال، والروايات متضاربة فيمن وضع هذه الشروط، فمرة أهل الجزيرة، ومرة أهل الشام، ومرة أهل مصر والشام. ثم من هذا الراهب أو القس الكاره لنفسه وقومه إلى هذه الدرجة حتى يفرض بنفسه على نفسه وقومه هذه الشروط.

ويدافع ابن القيم عن هذه الشروط بقوله: "وهذه الشروط شهرتها تغني عن إسنادها، فإن الأئمة تلقوها بالقبول وذكروها في كتبهم، واحتجوا بها"، وهذا ليس بصحيح لأن شهرة الرواية وتناقلها في الكتب لا يعني صحتها.

كما أن عدد هذه الشروط متفاوت بين الفقهاء، فقد ذكر الماوردي(ت:٤٥٠هـ/١٠٥٨م) ست شروط موجبة وهي "ألا يذكروا كتاب الله بطعن ولا تحريف، ولا رسول الله بتكذيب، ولا الإسلام بذم، ولا يصيبوا مسلمة بزنا ولا يفتنوا مسلما عن دينه، وألا يعينوا أهل الحرب على المسلمين، ونقضها نقض للعهد، أما المستحب فستة أشياء هي "تغيير هيئاتهم بلبس الغيار وشد الزنار، وألا يعلوا على أبنية المسلمين، وألا يسمعوهم صوت النواقيس، ولا يجاهروا بشرب الخمور وإظهار الصلبان، وأن يمنعوا من ركوب الخيل ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير، وهذه الشروط غير ملزمة بعقد الذمة، وإذا اشترطت عليهم لا يكون نقضها نقض للعهد وإنما يزجرون عليها" وهذا النص يختلف في السياق والبنود عما ذكره ابن الفراء(ت:٤٥٨هـ/١٠٦٥م) في كتابه المسمى الأحكام السلطانية وقس على ذلك بقية الكتب الأخرى، وكان كلما تقدم الزمان ضبطت الشروط ورتبت حتى ظهرت بصورتها التي ذكرها ابن القيم، والتي على أساسها كان نص العهد الذي كتبه الناصر سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ونلحظ أن هذا الشروط لم تُوجد في نصوص الصلح التي عقدها القادة المسلمون مع أهل البلاد المفتوحة، والتي تنص في مجملها على أنهم أمنون على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم مقابل الجزية.

ويكفي للتدليل على عدم صحة هذه الشروط المنسوبة لعمر بن الخطاب نص الأمان الذي أعطاه عمر لأهل إيليا وعليه صالح جميع أهل فلسطين، والذي ينص على أن "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين لأهل إيليا من الأمان: أعطاهم الأمان لأنفسهم وأموالهم، وكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها. انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن إيليا أحد معهم من اليهود، وعلى أهل إيليا

وطلبوا بطرك النصارى وديان اليهود وألزموهم بتطبيق الشروط، وكتب بذلك نسخ إلى الأعمال"[١٢].

من خلال ما سبق يمكن معرفة أهم أسباب هذه الفتن كما يذكر المقريزي وهو" تعاظم النصارى وتعديهم في الشر والإضرار بالمسلمين لتمكنهم من رجال الدولة، وتفاخرهم بالملابس الجليلة والمغالاة في أثمانها، والتبسط في المآكل والمشارب، وخروجهم عن الحد في الجراءة والسلاطة"، وهذا أدى إلى تعصب عامة المسلمين ضدهم، وهجوم بعضهم على الكنائس انتقاما منهم، أما قصة المغربي فما هي إلا القشة التي قسمت ظهر البعير، كما يُلاحظ من الرواية أن المغربي لم يكن يعلم حين توجه إلى هذا الرجل لينصحه أنه نصراني، وإنما كان غرضه من ذلك نهيه عن ظلم هؤلاء الناس.

أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن..." نخلص مما سبق أن هذه الشروط من وضع الفقهاء أنها ظلت تضبط ويضاف إليها منذ(القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي) حتى وصلت إلى الصيغة الحالية، والتي يمكن أن نطلق علها بدل الشروط العمرية أسم التنظيمات الفقهية لأهل الذمة.

كما أننا لو افترضنا صحة هذه الرواية المنسوبة إلى عبد الرحمن بن غنم والتي بني عليها الفقهاء هذه الشروط، فإن هذا لا يلزم أهل مصر لأن لهم عهد صالحهم عليه عمرو بن العاص ودخل فيه أهل مصر كلهم، وقد نص على" هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ...". البلاذري(أحمد بن يحي بن جابر ت:٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، تحقيق: أيمن محمد عرفة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)، ص٢١٣؛ الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير ت:٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الأمم والملوك، ج٢، تحقيق:مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، (د.ت)، ص٥٢٥،٥٩٨؛ الماوردي(أبو الحسن على بن حبيب البصري ت:٤٥٠هـ/١٠٥٨م): الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: عماد ذكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)، ص٢٥٧؛ ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص١١٥؛ المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م): السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٢٠٢. وأيضاً: محمد حميد الله: الوثائق السياسية في العهد النبوي والراشدين، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م، ص٤٨٨.

(١٢) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٧٩-٧٨٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٣٤.

بعدها قام الوزير المغربي في الحض على هدم الكنائس، فلم يسمح له قاضي القضـــاة تقي الدين ابن دقيق العيد[١٣] بذلك، وكتب بخطه أنه لا يجوز أن يهدم من الكنائس إلا ما أســتجد بناؤها[١٤]، فُغلقت عدة كنائس بالقاهرة ومصــر عدة أيام، وذلك حفاظاً على الكنائس وتســكيناً لغضــب العامة، والتي تنتظر مثل هذه الفرص للتنفيس عما بداخلها، فسعى بعض أعيان النصارى في فتح كنيسة حتى فتحت، فثارت العامة

(١٣) شيخ الإسلام محمد بن وهب بن مطيع القشيري الشافعي المالكي، ولي قضاء الديار المصرية، وصنف المصنفات الشهيرة كشرح عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني، توفي في صفر سنة٧٠٢هـ/١٣٠٢م. انظر: ابن العماد(عبد الحي بن أحمد الحنبلي ت: ١٠٨٩هـــ/١٦٧٨م): شــذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، تحقيق: محمود الأرناءوط، دار بن كثير، دمشق، ط١، ١٩٩٣م، ص١٠-١٣.

(١٤) قال جماهير أهل العلم على ســائر المذاهب أن الكنائس المحدثة في الإســلام تهدم، وحجتهم في ذلك قول عمر بن الخطاب: "لا كنيسة في الإسلام ولا خصاء"، وكذلك في البلاد التي بناها المسلمون مثل البصرة والكوفة لقول ابن عباس:" أيما مصر مصره العرب فليس للعجم أن يبنوا فيه، ولا يضربوا فيه ناقوساً، ولا يشــربوا فيه، ولا يتخذوا فيه خنزير، وأيما مصــر مصــره العجم ففتحه المســلمون فإن للعجم ما في عهدهم وعلى العرب أن يوفوا لهم، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم"، وهذا الحديث روايته ما بين ضــعيف، وضــعيف جداً، أما حديث عمر بن الخطاب:" لا كنيسة في الإسلام ولا خصاء" وهو حديث ضعيف ذكره أبو عبيد في كتاب الأموال، أضف إلى هذا أن الوقائع التاريخية تخالف حديث عمر سابق الذكر إذا اعتبرنا صحته، ففي ولاية عمرو بن العاص على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان تم بناء كنيسة مارمرقص بالإسكندرية، كما بنيت العديد من الكنائس في عصر الولاة وعلى رأسهم عبد العزيز بن مروان الذي بني عدد من الكنائس في مدينة حلوان التي أنشأها.

وكان الليث بن سعد فقيه أهل مصر، ومعه عبد الله بن لهيعة يرون أنها من عمارة البلاد. انظر: الكندي: الولاة والقضاة، ت: رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٣٢؛ ابن الرفعة(أحمد بن محمد بن علي بن حازم البخاري الشافعي ت:٧١٠هـــ/١٣١٠م): النفائس في أدلة هدم الكنائس، مخطوطة بالمكتبة الأزهرية، رقم٣٣٧٩٧٤، ورقة٣-٥؛ ابن تيمية: رســالة في الكنائس، تحقيق: علي بن عبد العزيز الشــبل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٥م، ص١٠٢؛ ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص١٢١-١٣٠؛ ابن نجيم(زين الدين إبراهيم بن نجيم الحنفي المصري ت:٩٧٠هـــ/١٥٦٢م): رسالة في الكنائس المصرية، ضمن كتاب الرسائل الزينية في مذهب الحنفية، تحقيق: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٠٩-٢١٠؛ القرافي(بدر الدين ت:١٠٠٩هـ/١٦٠٠م): الدرر النفائس في شأن الكنائس، تحقيق: حسن حافظي علوي، دار أبي قراق، الرباط، (د.ت)، ص١١٥.

ووقفوا للنائب والأمراء، واستغاثوا بأن النصارى قد فتحوا الكنائس بغير إذن، فأمر النائب جميع النصارى بإلزامهم الشروط وإلا حلت دمائهم[١٥].

ثم امتدت أيدي العامة إلي الكنائس وهدموا منها عدة كنائس بفتوى الشيخ نجم الدين بن الرفعة[١٦]، فاجتمع الفقهاء والقضاة للنظر في ذلك فصرح ابن الرفعة بوجوب هدمها[١٧] لأنها أحدثت في الإسلام، كما أصر على أن مصر فتحت عنوة[١٨]، وقد

---

(١٥) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٨١.

(١٦) هو الفقيه أحمد بن محمد بن علي بن حازم البخاري الشافعي، ولد سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، وقد برع في الفقه وله عدة مصنفات، تولى الحسبة والقضاء، توفي في رجب سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م. انظر: ابن العماد: شذرات الذهب، ج٨، ص٤١.

(١٧) أصدر ابن الرفعة فتوى في ٢٦شعبان سنة ٧٠٠هـ(١٣٠٠م) بهدم كنائس القاهرة لأنها محدثة في الإسلام، ومن أدلته على ذلك أن القاهرة بنيت في سنة٣٦٢هـ/٩٧٢م وهي مدينة إسلامية، كما أنه لا يجوز بناء كنيسة في مدينة بناها المسلمون كما قال أهل العلم، وإذا قيل أنها كانت موجودة قبل الإسلام فتهدم أيضاً لأن مصر فتحت عنوة كما حكاه النقلة من أهل العلم الذين يرجع إلى أقوالهم في نقل المذاهب، وإذا كان لهم عهد فهذا العهد خاص بآبائهم، وهذا يتطلب عهد خاص بالأبناء وذلك ما قاله أبو إسحاق في كتاب التنبيه، والشيخ ابن أبي عصرون شيخ الشام في كتابه المرشد، وهذا مذهب بدر الدين بن جماعة(ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م)، وابن النقاش(ت:٧٦٣هـ/١٣٦٢م)، وابن تيمية(٧٢٨هـ/١٣٢٨م) وغيرهم، هذه الأدلة التي ذكرها ابن الرفعة يمكن قبولها في قضية أنها كنائس بنيت في القاهرة التي بناها المسلمون، أما رده على من قال بأن الكنائس التي بنيت بها قبل الفتح الإسلامي تهدم لأن مصر فتحت عنوة، فيمكن الرد عليه بأن مذهب أكابر فقهاء مصر وعلى رأسهم الليث بن سعد يرى أن مصر فتحت صلحاً. انظر: ابن الرفعة: النفائس، ورقة٣-٢١؛ ابن تيمية(تقي الدين أحمد بن عبد السلام ت: ٧٢٨هـ/١٣٢٧م): رسالة في الكنائس، ص١٠٢؛ ابن جماعة(بدر الدين ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م): تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، نشر رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، قطر، ط١، ١٩٨٥م، ص٢٥٦-٢٥٧؛ ابن النقاش(شمس الدين محمد بن علي المغربي المصري ت:٧٦٣هـ/١٣٦٢م): المذمة في استعمال أهل الذمة، تحقيق: إبراهيم زكريا، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ، ص٦٦.

(١٨) أختلف الناس في فتح مصر هل فتحت صلحاً أم عنوة؟ قال قوم فتحت صلحاً كالليث بن سعد الذي نقل عن يزيد بن أبي حبيب قوله: فتحت مصر صلحاً إلا الإسكندرية فإنها فتحت عنوة، وقال يحيى بن أيوب وخالد بن حميد: فتحت مصر صلحاً إلا الإسكندرية، وقال آخرون: بل فتحت عنوة

رفض ابن دقيق العيد ذلك وقال: "أحتاج إلى بينة تشهد أنها أحدثت في الإسلام[١٩]، فإن قامت البينة بهذا أفتيت بهدمها، ومتى لم تقم بينة عادلة بذلك لا يجوز هدمها" وامتنع من الفتوى بهدمها ووافقه الفقهاء على ذلك، فغلقت الكنائس بمصر والجيزة لمدة سنة[٢٠]، وكان الغرض من عملية الغلق– كما ذكرنا سابقاً – هو تسكين غضب العامة، والحفاظ على الكنائس،"ثم فتحت على العادة، ولم يُتعرض إلى أديرة الرهبان التي

كسالم بن عبد الله بن عمر، ونقل عبد الله بن أبي لهيعة عن عبد الله بن هبيرة قوله: فتحت مصر عنوة، وكان الإمام مالك، وعبد الله بن لهيعة، ونافع بن يزيد ينكرون على الليث قوله أن مصر فتحت صلحاً، ويفهم من كلام ابن نجيم المصري الحنفي أن مصر فتحت صلحاً أي بعهد فيقول:" وإذا كانت قديمة لا يتعرض لكنائسهم، وذلك لأننا أقررناهم على ما هم عليه، فلو أخذنا بنقضها كان فيها نقض لعهدهم، وذلك لا يجوز"، وأعتقد أن الليث أعلم من مالك في هذا الشأن وكما يقال في المثل: أهل مكة أدرى بشعابها، فهو من أهل مصر ويعلم من أهلها هل مصر فتحت صلحاً أم عنوة؟، كما أن الطبري – وهو حجة في ذلك– قد ذكر نص العهد الذي صالح عليه عمرو أهل مصر.

ابن عبد الحكم(عبد الرحمن بن عبد الله ت:٢٥٧هـ/٨٧٠م): فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبيح، (د.ت)، ص٦٢–٦٧؛ ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص١٣٠–١٣٢؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٨١٤–٨١٥ ؛ السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت:٩١١هـ/١٥٠٥م): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، تعليق: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)، ص١٢٥–١٢٧؛ ابن نجيم: رسالة في الكنائس، ورقة٢.

(١٩) يقول ابن نجيم:" إذا علم أنها محدثة هدمت بالإجماع، وما لم يعلم يترك"، وهذا هو قول قاضي قضاة الشافعية شيخ الإسلام ابن دقيق العيد وغيره. انظر: رسالة في الكنائس، ورقة٢.

(٢٠) المنصوري(بيبرس ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٤م): مختار الأخبار، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص١١٧؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٣٩؛ المقفى الكبير، ج٢، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار المغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٥٣٩.

بالضـواحي وغيرها ولا كنائس البلاد"[٢١]، وهذه الشـهادة غاية في الأهمية لأنها شـهادة لمؤرخ مسيحي هو المفضل بن أبي الفضائل(ت:٧٥٩هـ/١٣٥٨م) الذي عايش الأحداث أكثر من المقريزي وغيره.

ولما ورد على أهل الإسـكندرية مرسـوم السـلطان في إلزام أهل الذمة بالشـروط ثاروا عليهم وهدموا لهم كنيستين، وهُدم بالفيوم أيضاً كنيستين[٢٢]، وقد تطور أمر العامة لدرجة أن رجل من سكان الحسينية يقال له علي بن السارق ركب فرسه ومعه سيفه فما وجد يهودياً ولا نصـــرانياً إلا ضـــربه فجرح البعض، فقُبض عليه خارج باب زويلة، وضـــربت عنقه بأمر السـلطان[٢٣]، وهنا ينبغي التنبيه على تأثير العوامل الخارجية في ظهور مثل هذه التوترات، فبعد سقوط عكا سنة٦٩٠هـ/١٢٩١م أو حتى قبلها بفترة بدأ العالم الغربي بقيادة البابوية في فرض حصار اقتصادي على سلطنة المماليك لإضعافها حتى تصبح لقمة سائغة عند إرسال حملة صليبية جديدة لتحرير الأراضي المقدسة، وقد اشتد هذا الحصار مع بداية سلطنة الناصر محمد بن قلاوون(مدة سنوات حكمه) حيث تم مهاجمة الشواطئ المصرية والشامية، وتهديد السفن التجارية في البحر المتوسط التي تتعامل مع المماليك...الخ[٢٤]، وهذا يفسـر لنا لماذا شـهد عصـر الناصـر أكبر توترين

---

(٢١) المفضل ابن أبي الفضائل(ت: ٧٥٩هـ/١٣٥٨م): النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد، ج٣، تحقيق: بلوشيه أدغار، باريس، ٢٠٠٤م، ص٤٠.

(٢٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٣٩؛ المقفى الكبير، ج٢، ص٥٣٩؛ ابن تغري: النجوم الزاهرة، ج٨، ص١٣٤. وانظر: ترتون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م، ص٦١.

(٢٣) ابن أبي الفضائل: المصدر السابق، ج٣، ص٧٤٩؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٩٨.

(٢٤) للمزيد عن هذا انظر: محمد فتحي الزامل: الحصار الاقتصادي علي مصر أواخر العصور الوسطى(١٢٩١-١٥١٧م)، المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة، ٢٠٠٩م، ص٣٩ فما بعدها.

في تاريخ العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة في دولة المماليك مع ما وُصف به هذا السلطان من العدل، وحبه لرعيته التي شهد لها القاسي والداني.

أثر ذلك علي مستوى العلاقات الخارجية:

كان لهذه الأحداث تأثير كبير في العالم الغربي، فقد بعث ملك القسطنطينية في سنة٧٠١هـ/١٣٠١م سفارة إلى القاهرة لتشفع في فتح الكنائس، ففتحت عدة كنائس[٢٥]، كما بعث ملك برشلونة[٢٦] في سنة٧٠٣هـ/١٣٠٣م هدية كبيرة للسلطان وحاشيته، وكتب يسأله في فتح الكنائس، فقبلت شفاعته وفتحت كنيسة حارة زويلة[٢٧] لليعاقبة[٢٨]، وكنيسة البندقانيين بالقاهرة للملكيين[٢٩]، كما بعث ملك القسطنطينية مرة أخرى في سنة٧١٠هـ/١٣١٠م يشفع في فتحها ففتحت عدة كنائس حينئذ هي: الكنيسة المعلقة، وكنيسة ميكائيل[٣٠] الملكية[٣١]، وكنيسة حارة زويلة، وكنيسة نقولا وغيرها[٣٢]، ولنستمع إلي ما قاله الأمير بيبرس المنصوري وهو يصف هذه السفارة فيقول:" وفي سنة٧١٠هـ/١٣١٠م وصل رسل صاحب القسطنطينية شافعاً في أهل الذمة ضارعاً إليه

---

(٢٥) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٣، ص١٩٥؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٣٣٩؛ المقفى الكبير، ج٢، ص٥٣٨-٥٣٩.

(٢٦) إحدى مدن الأندلس. انظر: ياقوت الحموي(شهاب الدين بن عبد الله الحموي ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م، ص٣٨٤.

(٢٧) تسمى هذه الكنيسة باسم السيدة مريم عليها السلام. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨١٠.

(٢٨) هم أتباع ديسقرس بطرك الإسكندرية، وقد سموا يعقوبية نسبة إلى يعقوب البردغاني، الذي كان راهبا بالقسطنطينية، وكان يدعو إلي مذهب ديسقرس. انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٨.

(٢٩) ابن أبي الفضائل: المصدر السابق، ج٣، ص٩٦؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٨٢؛ السلوك، ج٢، ص٣٧٠.

(٣٠) هي كنيسة كانت عند خليج بني وائل خارج مدينة مصر القديمة، وهي الآن قريبة من جسر الأفرم، وهي كنيسة محدثة في الإسلام. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨٢٤.

(٣١) هم أتباع ملكان الذي ظهر بأرض الروم، ومن معتقداتهم أن جزءاً من اللاهوت حل في الناسوت، وهم يدينون بالطاعة لبطرك رومية. انظر:القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص٢٧٦.

(٣٢) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٥٨،٣٣٩؛ المقفى الكبير، ج٢، ص٥٣٨-٥٣٩.

في النظر لهم بعين الرحمة، فأحسن قبولهم وأمر أن تُفتح لهم–أي النصارى– بعض كنائسهم المغلقة، وأن تكون عين الرعاية بهم محدقة"[٣٣]. من خلال هذه العبارة التي وضعنا تحتها خط يمكن تلخيص موقف الدولة من أهل الذمة في مصر.

وكان النصارى بقوص قد أحضروا مرسوماً أن تفتح الكنائس، فقام شخص في الفجر بجامع قوص والناس مجتمعة وقرأ قوله تعالى"إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم"، وحرضهم على هدم الكنائس، فهدمت ثلاثة عشر كنيسة، ونسب ذلك إلى الشيخ عبد الغفار بن أحمد الأقصري، وعندها أرسل السلطان أحد كبار الأمراء لكشف الخبر، فنزل إليه شخص من النصارى فتكلم في الأمر، فاجتمع عليهم العوام ورجموهم حتى وصل الرجم إلى مركب الأمير، ثم انتهى الأمر بالقبض على جماعة من المتصوفة وضربهم وأخذ الشيخ عبد الغفار ووضعه تحت الإقامة الجبرية بالقاهرة إلي أن مات سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م بالقاهرة، وقد سئل عن ما حدث فقال:" أنهم زادوا في الطغيان ففُعل بهم ذلك"[٣٤]، وهذه المقولة تعطينا صورة عما كانت عليه العلاقة بين بعض عوام المسلمين، وبخاصة عوام المتصوفة– الذين تحركهم العاطفة لا الفقه، فيسيئون أكثر مما يصيبون– وعوام النصارى.

---

(٣٣) المنصوري(بيبرس ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٤م): التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م، ص٢٢٠-٢٢١.

(٣٤) بيبرس المنصوري: زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد ريتشاردز، مؤسسة حسيب درغام، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٤٠٩؛ الإدفوي(كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م): الطالع السعيد الجامع لنجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٣٢٥؛ المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٢٧؛ ابن حجر(شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني ت:٨٥٢هـ/١٤٤٢م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، تحقيق: سالم الكرنكري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م، ص٣٨٥-٣٨٦.

وقد وقع حادث فردي شبيه بهذا الحادث في المحرم سنة ٧١٤هـ(١٣١٤م) من أحد المتصوفة وهو نور الدين علي بن يعقوب البكري(ت:٧٢٤هـ/١٣٢٣م) الذي بلغه أن النصارى قد استعاروا من قناديل جامع عمرو شيئاً وعلقوه في احتفال كان بالكنيسة المعلقة، "فانتصب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسبة من غير ولاية سلطانية، ولا إذن حكمي، ورأى أن ذلك يتعين عليه"[٣٥]، فأخذ معه طائفة كبيرة من الناس وهجم على الكنيسة والنصارى بها ونكل بهم، ثم عاد إلي جامع عمرو وأهان قومته وخطيبه، ولما علم السلطان بذلك أحضر القضاة في مجلس ومعهم البكري فوعظ السلطان، ثم أغلظ له واتهمه بأنه سلط النصارى على المسلمين وقوى دينهم، فغضب السلطان وأمر بقطع لسانه، فبلغ ذلك الشيخ صدر الدين بن الوكيل فطلع إلى القلعة فشفع فيه فقبل السلطان شفاعته بعد جهد ومشقة، وشرط أن ينفى من مصر فنفي إلى دهروط [٣٦]، وهذا الموقف من قبل الخطيب والعاملين بجامع عمرو بن العاص مع قساوسة الكنيسة المعلقة دليل العلاقة الطيبة.

(٣٥) النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت: ٨٣٣هـ/١٣٣١م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م، ص٢١١.

(٣٦) المقريزي: السلوك، ج٢، ص٤٩٥؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣، ١٣٩؛ ابن تغري بردي(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٨، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٢٤٢؛ الشوكاني(محمد بن على ت:١٢٥٠هـ/١٨٣٤م): البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع، ج١، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥٤٣. ودهروط: قرية من قرى الإسكندرية، كان خراجها في سنة٧١٥هـ/١٣١٥م ٦١٢٥ دينار جيشي، وتتبع الديوان الخاص، ثم تحولت في سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م إلى إقطاع باسم الأمير قاني باي العلائي. انظر: ابن الجيعان: التحفة السنية، ص١٣٨.

وبالرغم مما حدث نجد النصارى في سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م يطلبون من السلطان ترميم[٣٧] جدران كنيسة بربارة بحارة الروم فأذن لهم في ذلك[٣٨]، فاجتمع لعمارتها كثير من النصارى ومعهم الآلات، وقام بترميمها بعض العمال المسلمين، وهنا نلحظ أن المسلمين هم من رمموا هذه الكنيسة، وهذا دليل على أن العلاقة التي كانت تتوتر بين الحين والآخر لم تكن تؤثر على العلاقة الطيبة بين المسلمين والنصارى، وإلا فما الذي دفع النصارى للاستعانة بالعمال المسلمين في ترميم الكنيسة، لكن أمر الترميم لم يرض جيران الكنيسة من المسلمين، وشكوا أمرها إلى نائب السلطنة وناظر الجيش، ورفعوا عدة تظلمات إلى السلطان بمساعد النائب والناظر بأن بها مباني قد جددت فصدر الأمر بخراب ما جدد فيها من البناء.

فتوجه والي القاهرة إلى الكنيسة، واجتمع إليه من الناس عدد لا يحصيهم إلا الله، وهدم ما جدد فيها من البناء، وبعد أن رحل قامت طائفة من المسلمين ببناء محراب في الجانب الذي هدم وأقاموا فيه الصلاة، فلم يتمكن الوالي من معارضتهم خشية الفتنة، فغضب النصارى من ذلك وشكوا أمرهم إلى كريم الدين ناظر الخاص، فرفع ذلك إلى

---

(٣٧) وردت روايتان عن الإمام أحمد في ترميم الكنائس وبناء ما تهدم منها، إحداهما بالمنع، والأخرى بجواز ترميمها دون إعادة بنائها، واختار أبو بكر الخلال منع البناء وجواز الترميم، واختلف الشافعية، فقال أبو سعيد الأصطخري: يمنعون من إعادة البناء والترميم، وقال تقي الدين السبكي: أن الكنيسة إذا انهدمت ولو بغير حق لا يجوز إعادتها مرة أخرى، وعلل المانعون ذلك بأننا أقررناهم عليها مدة بقاءها، فإذا تهدمت لا يجوز بنائها مرة أخرى، ورفض سائر الشافعية ذلك وقالوا: نحن قد أقررناهم على كنائسهم، فلو منعناهم من الترميم وإعادة ما أنهدم كان ذلك بمنزلة الإزالة، إذ لا فرق بين أن تزال أو تبقى دون المنع من مرمتها، وبه قال الحنفية وكثير من المالكية وبعض الحنابلة، والقول الراجح هو ما ذهب إليه جمهور الشافعية ومن تابعهم على هذا القول من المذاهب الأخرى. انظر: ابن القيم: أحكام أهل الذمة، ص١٣٩-١٤١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص٦٠٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٩، ص٥٠٥.

(٣٨) النويري: نهاية الأرب، ج٣٢، ص٢٨٥.

السلطان ومازال به حتى أمر بهدم المحراب وإعادة البناء، وكأن السلطان فعل هذا نكاية في جيران الكنيسة من المسلمين الذين يسعون لإثارة فتنة، كما أمر بالقبض على أهل حارة الروم وسجنهم[٣٩]، وعلى هذا المثال وغيره يعلق موير عليه بقوله:" وكان الناصر يعمل جهده في إنصاف المسيحيين، وإقامة العدل بينهم، وسمح لهم بلبس عمائم بيضاء إن أرادوا ذلك"[٤٠]، كما كان السلطان محمد على علاقة طيبة بالأب برصوما العريان(ت:٧١٧هـ/١٣١٧م)، وكان كثيراً ما يزوره في دير شهران أيام إقامته فيه، ويرسل إليه ويستشيره في بعض الأمور، وظلت العلاقة الطيبة قائمة بينهما حتى مات[٤١].

اضطرابات سنة٧٢١هـ/١٣٢١م وما شهدته من عنف وعنف مضاد ودور الدولة حياله:

جاءت الحادثة الثانية في سنة٧٢١هـ/١٣٢١م، وتبدأ القصة حين أمر السلطان بإنشاء حظيرة على النيل وقد احتاج إلى طين كثير، فنزل بنفسه وعين مكان من أرض بستان الزهري ليأخذ منه الطين وعوض أهله ثمنه، وابتدأ الحفر في ١٩ربيع الأول ولم يزل الحفر مستمر إلى قرب كنيسة الزهري، وأحاط بها الحفر من حولها حتى صارت في الوسط، وصار غلمان الأمراء يسعون لهدم الكنيسة، والأمير يزجرهم، فلما كان يوم الجمعة ٩ربيع الأخر توقف العمل للصلاة، فانتهز الغلمان والكثير من العامة انشغال الناس بالصلاة، وتوجهوا للكنيسة بالفؤوس حتى تهدمت، ثم توجهوا إلى كنيسة الحمراء

(٣٩) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٤، الخطط، ج٣، ص٨١٠. وكريم الدين ناظر كان وكيل السلطان الملك الناصرمحمد بن قلاوون، وصاحب نفوذ هائل وكا ناظر الجيش، ومدبر دولته. وانظر المصر السابق النويري نفسه.

(٤٠) وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص٩٣.

(٤١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ج٣، ص١٣١.

المجاورة لها، فصـــعدت العامة فوقها وفتحوا أبوابها ونهبوا أموالها وخمورها، وانتقلوا إلى كنيسة بومبا[٤٢] فكسروا أبوابها ونهبوا ما فيها، وقتلوا جماعة من النصارى.

نلحظ أن هؤلاء ما هجموا على الكنائس إلا لعلمهم بما فيها من خمور وأشـــياء ثمينة من ذهب وفضـــة ونحوه، وإذا ربطنا ذلك بما ذكره أحد الباحثين من أن العوام عاشوا في القاهرة والمدن في ضيق وعسر، وأنه وُجد بالقاهرة عدد كبير من العوام ليس لهم مأوى في الليل والنهار سوى الطرقات، وقدر عددهم ما بين خمسين ألفاً ومائة ألف، سنجد أن الرغبة في السلب والنهب كانت دافعهم للهجوم على الكنائس، وخطف كل ما تصل إليه أياديهم وبالطبع ليس هناك فرصة أفضل من استغلال النزاعات التي كانت تحدث بين الحين والأخر بين بعض المسلمين وبعض النصارى للهجوم على الكنائس ونهب ما فيها، وهو بالفعل ما قامت به العامة في هذه الفتنة، فلما خرج الناس من صـــلاة الجمعة رأوا غباراً ودخان حريق قد ارتفعا إلى الســـماء، وما في العامة أحد إلا ومعه بنت قد سباها أو جرة خمر أو أي شيء من النهب فدهشوا لذلك، وبدأوا يسألون عن خبر ما يحدث[٤٣]،.

موقف الدولة من هذه الاضطرابات:

وصل الخبر إلى القلعة، فأمر السلطان الأمير أيدغمش بكشف الخبر فلما علم بالخبر انزعج جداً، وابلغ الســلطان فغضـــب لانتهاك حرمة الســلطنة وتجرأ العوام وإقدامهم على مثل هذا الأمر[٤٤]، فأمره الســـلطان أن يركب بالوشـــاقية ليقبض على

---

(٤٢) تقع هذه الكنيسة في طريق مصر، وهي عبارة عن ثلاث كنائس متجاورة، أحداهما لليعاقبة، والأخرى للسريان، والثالثة للأرمن، ولها عيد في كل سنة يجتمع فيه النصارى. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨١٠.

(٤٣) سعيد عبد الفتاح: المجتمع المصري، ص٣٨.

(٤٤) النويري: نهاية الأرب، ج٣٣، ص١٤.

العامة ويشـــهرهم، وأثناء ذلك جاء إلى الســـلطان مملوك والي القاهرة يخبره أن العامة ثارت بالقاهرة وهدموا كنيســـة بحارة الروم، وكنيســـة بحارة زويلة[٤٥]، وأثناء ذلك قدم مملوك والي مصـر يخبر السـلطان أن عامتها قد تجمعت لهدم كنيسـة المعلقة ويطلب نجدة، وعندها أشـتد غضـب السـلطان وهم أن يركب بنفسـه، ثم أردف أيدغمش ومعه أربعة أمراء إلى مصـــر، وبعث الأمير بيبرس الحاجب وألماس الحاجب إلى موضـــع الحفر، وأرسل الأمير طينال إلى القاهرة ليضـعوا السيف فيمن وجدوه، ففر الناهبين ولم يدرك الأمراء منهم إلا من غلب عليه سـكر الخمر، وهنا نتوقف لنسـأل هل هناك رجل يعرف دينه يشـرب الخمر؟ والإجابة بالطبع لا، إذا كيف لهؤلاء المتعصـبين أن يحكموا على عامة المسـلمين بسـبب جرم ارتكبه بعض الفاسـقين بأن المسـلمين كانوا للنصـارى مضـــطهدين، إن هؤلاء كان يجب أن يقام عليهم حد الخمر قبل أن يعاقبوا على إثارتهم للفتن، وتعديهم على دور العبادة.

نعود مرة أخرى للحديث عن هذه الفتنة فنقول: أما الأمير أيدغمش فقد أدرك والي مصـــر وقد هزمته العامة من زقاق الكنيســـة المعلقة ولم يبقى إلا أن يحرقوا أبواب الكنيسـة، فجرد السـيوف ليفتك بهم فرأى عالماً عظيماً لا يحصـيهم إلا الله، فكف عنهم خوفاً من اتســـاع الخرق، ونادي من وقف فدمه حلال فخافت العامة وتفرقت، ووقف أيدغمش يحرس المعلقة إلى أن أذن العصـــر فصـــلى بجامع عمرو بن العاص، وعين

(٤٥) هم الذين يتولون ركوب الخيل للتسيير والرياضة. وكنيسة العذراءالمغيثة(بحارة الروم) تأسست في أواخر القرن الخامس الميلادي وهدمت في عام ١٣٢١ في عهد الاصـــر محمدبن قلاوون. اكتســبت أهميتها بانتقال الكرســي البطريكى إليها عام ١٦٦٠م،، وكنيســة زويلة تتميز بأقدميتها المطلقة حيث تأسست عام ٣٥٢م وتكون تسميتها نسبة إلى حارة زويلة التي كانت تسكنها قبيلة زويلة المغربية التي اســتعان بها جوهر الصــقلي في بناء القاهرة. كما احتلت مكانة عظيمة لأنها كانت مقرا للكرســي البطريركي لمدة ٣٦٠ عاما. انظر: محمد قنديل البقلي: مصــطلحات صــبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص٥٧.

خمسين أوشاقياً للمبيت مع الوالي على باب الكنيسة وعاد، وكأنما نودي في إقليم مصر بهدم الكنائس، وكانت العامة تقول: أن السلطان نادى بخراب الكنائس، فظن الناس ذلك، ثم تبين أن ذلك من العامة لا من السلطان. ويعلق موير على هذا بقوله:" أما الناصر ووزراؤه فقد وقفوا موقفاً حميداً يذكر لهم إذ واجهوا الخطر منتصرين للحق، ولكنهم حين أخفقوا في صد التيار الجارف لم يروا بد من تنفيذ القوانين بكل صرامة"[٤٦].

وفي ١١ربيع الآخر سنة٧٢١هـ/١٣٢١م، وصل البريد إلى والي الإسكندرية ليبين له ما حدث للكنائس بالقاهرة، فركب الوالي بعد الصلاة ليطمئن على الكنائس، ويؤمنها من الاعتداء عليها، فإذا بها قد تهدمت، وكانت عدتها أربعة كنائس، كما جاء البريد من والي قوص بأنه في يوم الجمعة المذكورة سابقاً هدمت العامة ست كنائس في نحو نصف ساعة، وتواترت الأخبار من الوجه القبلي والبحري بهدم الكنائس يوم الجمعة.

وكان مجموع ما هدم في مصر كلها ستون كنيسة وهي كالتالي: أحد عشر كنيسة بالقاهرة هي كنيسة بقلعة الجبل لم يك أحد يعلم عنها شيء إلا أثناء هذه الأحداث، وكنيسة بأرض الزهري[٤٧]، وكنيسة الحمراء[٤٨]، وكنيسة بجوار السبع سقايات، وكنيسة أبي المنا بجوارها، وكنيسة بحارة باب زويلة، وكنيسة بخزانة البنود، وكنيسة الفهادين[٤٩]، وكنيسة حارة برجوان، وكنيسة رملة الحسينية، وكنيسة بالخندق

---

(٤٦) تاريخ دولة المماليك، ص٩٤.

(٤٧) كانت في الموضع الذي فيه البركة الناصرية بالقرب من قناطر السباع. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨١٣.

(٤٨) تعرف هذه الكنيسة باسم بومنا، وهي بخط قناطر السباع فيما بين القاهرة ومصر، أحدثت هذه الكنيسة في سنة١١٧هـ/٧٣٥م بإذن الوليد بن رفاعة أمير مصر. انظر:المقريزي: المصدر السابق، ج٣، ص٨١٣.

(٤٩) بني الأمير فارس الدين البكي في موضع هذه الكنيسة المدرسة الفارسية في سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م. انظر:المقريزي: المصدر السابق ، ج٣، ص٥١٤.

خارج القاهرة، وأربع كنائس بالإسكندرية، وكنيستان بدمنهور، وأربع بالغربية، وثلاث بالشرقية، وست بالأعمال البهنساوية، وثماني كنائس بأسيوط ومنفلوط ومنية ابن خصيب، وإحدى عشر كنيسة بقوص وأسوان، والأعمال الأطفيحية كنيستان، وبمصر ثمان كنائس(٥٠)، وبالطبع أعاد السلطان بناء أغلب هذه الكنائس وبخاصة الموجودة في القاهرة.

(حريق القاهرة سنة٧٢١هـ/١٣٢١م):

رد بعض عامة النصارى على ذلك بحريق القاهرة في ١٥جمادى الأولى سنة٧٢١هـ/١٣٢١م، حيث احترق الربع الذي بسوق الشوايين من أوقاف البيمارستان، واجتهد الأمراء في إطفاءه، ووقع حريق في حارة الديلم وعدة أماكن وأرسل السلطان عدة مماليك لإطفائه خوفاً على البيوت السلطانية، وأشتد أمر الحريق فاتلف النخيل وسقطت الدور، فاجتمع الناس في المساجد والزوايا وضجوا بالدعاء والتضرع، كما أرسل السلطان الأمراء والمماليك ومعهم السقاءين بالماء لإطفاء الحرائق، وخمدت النيران في ١٨جمادى الأولى، ثم ازدادت في اليوم التالي حيث حدث حريق بربع الملك الظاهر، وقيسارية الفقراء، واجتهد الأمراء في إطفائها ولم يكد ينتهوا حتى سمعوا بحريق في بيت الأمير سلار بين القصرين، ثم حريق في حارة الروم وغيرها، وشاع في الناس أن الحريق من قبل النصارى بسبب هدم الكنائس، ثم وقع حريق في عدة مساجد وجوامع ودور.

---

(٥٠) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٦-٣٩؛ الخطط، ج٣، ص٨١٤-٨١٦؛ الدواداري(أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ت: ٧٣٦هـ/١٣٣٥م): كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩(الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ١٩٧١م، ص٣٠٦.

وفي ليلة الجمعة٢١جمادى الأولى قبض على راهبين خرجا من المدرسة الكهارية وقد أشعلا النار بها، فأحضرا إلى والي القاهرة فشم منهما رائحة الكبريت والزيت، فأحضرا إلى السلطان الذي أمر بعقوبتهما حتى يعترفا، فلما نزل الوالي من القلعة وجد العامة قد قبضت علي نصراني بجامع الظاهر بالحسينية ومعه قماش ملطخ بالنفط والقطران وقد وضعه بجانب المنبر، فلما فاح الدخان دخل الناس وقبضوا عليه، فعوقب قبل الراهبين فاعترف على جماعة من النصارى اجتمعوا وأعدوا النفوط وفرقوها على جماعة ليشعلوا بها المواضع المطلوبة، ثم عوقب الراهبين فاعترفا بأنهما من دير البغل، وأنهما اللذان أحرقا سائر الأماكن نكاية في المسلمين بسبب هدم الكنائس، ولهذا كانت هذه النيران هدفها الواضح المساجد.

أمر السلطان بإحضار البطرك فحضر وبالغ السلطان في إكرامه، وأعلمه بما حدث فبكى البطرك وقال: "هؤلاء سفهاء قد فعلوا كما فعل سفهاؤكم بالكنائس من غير إذن السلطان"، وبهذه العبارة لخص البطرك ما حدث، ثم ركب وانصرف معززاً مكرماً يحرسه الجند، فهاجت العامة لأنهم لم يكن لديهم استعداد لأن يروا أمام أعينهم البطرك مكرماً، وكان بودهم لو مزقوه إرباً، لولا وجود حراس السلطان معه، وعندما رأى السلطان أن الأمر يزداد سوءاً ، أمر بالقبض على الكثير من العامة ومعاقبتهم –وكان هدفه من ذلك ترهيب العامة وتخويفهم– فخاف الناس وأغلقوا بيوتهم ودكاكينهم بالقاهرة والبعض رحل إلى الجيزة وهدأت الفتنة.

ولكن النصارى ما لبثوا أن أشعلوا الفتنة مرة أخري، حيث عادت الحرائق يوم ٢٨ جمادى الأولى في أماكن بجوار جامع أحمد بن طولون وعدد من بيوت الأمراء والتجار، وقبض على ثلاثة من النصارى ومعهم أدوات الحريق واعترفوا أنهم فعلوا ذلك، وأعترف بعضهم على راهب من دير الخندق أنه كان ينفق المال في عمل النفط لإشعال

الحرائق ومعه أربعة، فأخذوا وسمروا، وذلك بعدما اعترفوا على أربعة عشر راهباً بدير البغل، فقبض عليهم من الدير وحفرت لهم حفرة كبيرة وأحرق فيها أربعة منهم، هذا يعني أن المدبرين رهبان من ديري الخندق والبغل، وهؤلاء الرهبان مثل المتصوفة يتحركون بالعاطفة الدينية لا بالعقل[٥١].

توجه السلطان بعد ذلك إلى الميدان فصاحت به العامة وأهانته وقالت له:" إلى متى تحامي للنصارى؟ "فشق ذلك على السلطان، فأشار عليه نائب الكرك بعزل الكتاب النصارى فلم يرضه ذلك لأنه سيظهر أمامهم بمظهر العيف العاجز، ويقوي بأسهم فيقوموا بمثل هذه الأمور مرة أخرى، كما أنه يرى أن الأمر تعدى من كونه فتنة طائفية يمكن تلافيها إلى تمرد على الدولة، فأمر ألماس الحاجب أن يخرج في أربعة أمراء ويضع السيف في العامة حتى ينتهى إلى باب زويلة، ويمر إلى باب النصر وهو كذلك ولا يرفع السيف عن أحد، وأمر والي القاهرة أن يتوجه إلى باب اللوق والبحر ويقبض علي من يجده ويحملهم إلى القلعة، وقد بادر كريم الدين وسأل السلطان العفو، فقبل شفاعته وأمر أن يقبض على العامة من غير قتل.[٥٢]

كان خبر القبض على مثيري الشغب قد انتشر في أرجاء القاهرة ففرت العامة وأُغلقت جميع الأسواق، ومر الوالي من باب اللوق وبولاق وغيرها وقبض على الكثير من العامة، وحضر الوالي بمن قبض عليه وهم نحو المائتين، فأمر أن يصلبوا، وأفرد جماعة منهم للشنق وجماعة للتوسيط وجماعة لقطع الأيدي، وعندها صاحوا وقالوا وهم يبكون: "يا خوند ما يحل لك فما نحن الغرماء"، فرق لهم بكتمر الساقي ومن معه من

---

(٥١) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٤٢-٤٤؛ ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص١٨٩. وانظر: ترتون: أهل الذمة، ص٦٥-٨٠.

٥٢ المصدر السابق : نفسه.

الأمراء، ومازالوا بالسلطان حتى رسم بصلب جماعة منهم على الخشب من باب زويلة إلى باب الخيل تحت القلعة، وقطع يد البعض، ورحل الباقي إلى الجيزة للعمل في الحفر.

وقد أراد السلطان بذلك أن يُعلم الشعب ألا يثور مرة أخرى، وبفعله هذا أوقف هيجان العامة وثورتهم، لكن هيجان المتعصبين النصاري لم يتوقف فأشعلوا الحرائق في القاهرة مرة ثالثة، فقبض على ثلاثة نصارى واعترفوا بفعلهم ذلك فُعوقبوا، وكان رد فعل السلطان على ذلك بعد أن فاض به الكيل أن أمر بفرض الشروط العمرية، ومن خالف ذلك قتل، وإغلاق الكنائس والأديرة(٥٣)، ولعل هذه هي أسوأ فتنة حدثت منذ عهد الحاكم بأمر الله، غير أنه يجب ألا يغرب عن بالنا في الوقت نفسه، أنه كان هناك توتر وتهور من كلا الجانبين، وأن القلاقل كانت تحدث نتيجة غضب الشعب لا تعصب الحكام(٥٤).

وفي هذا المقام أرى أن هذه الأحداث كانت تدار أيدي خارجية دميتها المصريين مسلمين ونصارى، ومحركوها الغرب الأوروبي، والدليل على ذلك التقرير الذي قدمه الأمير هيثوم الأرميني سنة٧٠٧هـ/١٣٠٧م الذي ضمنه كتابه زهور من تاريخ الشرق الذي قدمه للبابا، والذي يرى فيه أن مصدر قوة سلطنة المماليك يكمن في الاستقرار السياسي والاقتصادي، وهذا بالطبع لن يأتي إلا بالحصار الاقتصادي وإثارة الفتن والاضطرابات في البلاد(٥٥).

---

(٥٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٤٠-٤٣؛ الخطط، ج٣، ص٨١٦-٨٢٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩، ص٦٣-٧٢؛ الدواداري: كنز الدرر، ج٩، ص٣٠٦. وانظر: ستانلي لينبول: سيرة القاهرة، ص١٩٠.

(٥٤) ستانلي لينبول: المرجع السابق، ص١٩٠.

(٥٥) محمد فتحي الزامل: الحصار الاقتصادي، ص٧٧.

أما أثر ذلك على المستوى الدولي فقد ورد في المحرم سنة٧٢٦هـ/١٣٢٥م) رسول من ملك الحبشة معه كتاب يطلب فيه إعادة ما خرب من الكنائس ومعاملتهم بالإكرام، ويهدد بأنه سيخرب ما عنده من مساجد المسلمين، ويسد النيل حتى لا يعبر إلى مصر، فسخر السلطان منه ورد رسله[٥٦]، كما أرسل البابا رسلاً إلى السلطان الناصر ومعهم هدية وكتاب يتضمن التوصية بنصارى مصر، ويمزج هذا الطلب بلغة التهديد قائلاً: أنهم سيعاملون المسلمين في بلادهم كما سيعامل النصارى سواء بالخير أو الشر، فأجابهم الناصر إلى ما طلبوا، وهذه السفارة تبين مدى الاهتمام الأوروبي بالأحداث الداخلية في مصر حتى أن البابا بنفسه يرسل وفد للتوصية بالنصارى[٥٧].

ورغم هذه الفتن نجد أن النصارى كانوا يلجأون إلى السلطان ليسمح لهم بترميم كنائسهم القديمة التي أصابها الخراب أو الحريق، وذلك لعلمهم أن الملك الناصر برئ، وأنه أُكره على إصدار مرسوم سنة٧٠٠هـ/١٣٠٠م، وذلك لردع جماعة من مفسدي النصارى وتسكين ثورة العامة[٥٨]، ففي رجب سنة٧٣٠هـ(١٣٢٩م) احترقت كنيسة للنصارى الملكيين، فطلبوا من السلطان إعادة تعميرها فأذن لهم بذلك وأعيد تعميرها[٥٩]، وتصدي لمحاولات التعدي على الكنائس كما حدث في سنة٧٤٢هـ/١٣٤١م عندما

---

(٥٦) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٨٧.

(٥٧) نفس المصدر، ص١٠٠.

(٥٨) علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٨م، ص٣٤٩.

(٥٩) الجزري(شمس الدين محمد بن محمد ت: ٨٣٣هـ/١٤٢٩م): حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأعيان والأكابر من أبنائه، ج٢، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص٣٩٢؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٢٩.

قُبض على جماعة من العامة نهبوا بعض الكنائس فعوقبوا وصـــلبوا تحت القلعة، ثم أفرج عنهم بعد مدة[٦٠].

القلاقل والعنف المضاد سنة٧٥٥هـ/١٣٥٤م ومواجهة الدولة لها:

تجددت الاضطرابات مرة أخرى في شهر جمادى الأولى سنة٧٥٥هـ(١٣٥٤م) عندما أمر السلطان بإحصاء ما هو موقوف على الكنائس من أرض مصر، فزاد عن خمسة وعشرين ألف فدان، وسبب ذلك الإحصاء هو استعلاء كبار النصارى العاملين في دواوين الدولة وتعديهم على عوام المســـلمين، بالإضـــافة إلى التأنق في المأكل والملبس والمسكن الحد الذي أثار عليهم حفيظة العامة، وقد أشعل هذه الفتنة مرور أحد كتاب النصارى على الجامع الأزهر وهو راكب وأمامه عبيد يمنعون الناس من مزاحمته، وخلفه عبيد بثياب ثرية، فشق ذلك على جماعة من العامة فثاروا عليه وأنزلوه عن فرسه وحاولوا قتله، ثم رفعوا شكوى إلي السلطان على لسان المسلمين قرأت على السلطان في حضرة القضاة والأمراء تتضمن الشكوى من النصارى، فطلب السلطان صالح بن محمد بن قلاوون(٧٥٢-٧٥٥هـــ/١٣٥١-١٣٥٤م) بطرك النصـــارى وأعيان ملته وألزمهم الشـــروط العمرية وهي تتضـــمن العهد الذي كتبه الناصـــر محمد في ســـنة ٧٠٠هـــ/١٣٠٠م[٦١]، وقرئ هذا المرسوم في جامع عمرو بن العاص والأزهر، وبعدها هاجت العامة على النصارى[٦٢].

---

(٦٠) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٣٦٠.

(٦١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٧٨-٣٨٧.

(٦٢) المقريزي: المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٤؛ الخطط، ج٣، ص٧٨٣؛ الحنفي(عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي ت:٩٢٠هـــ/١٥١٤م): نيل الأمل بذيل الدول، ج١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٦٦.

وفي شهر ربيع الأول سنة٧٥٥هـ(١٣٥٤م) قدم عدد من نصارى الغربية، ووقفوا بدار العدل بالقلعة، وسألوا السلطان إعادة كنيسة النحرارية[٦٣] التي هدمها العامة وعملوها مسجد[٦٤]، ويبدو أنهم لم يحسنوا الأدب مع السلطان فلم يجابوا وطردوا، وكتب إلى والي هذه الناحية أن يقيم لهذا المسجد منارة، وتجدد عمارته نكاية فيهم ففعل[٦٥].

ثم في رجب من نفس العام كثرت الشكاوى التي تتضمن أن النصارى استجدوا في كنائسهم عمائر ووسعوا بناءها، وتجمع من الناس عدد كبير واستغاثوا بالسلطان، فأمر والي القاهرة أن يذهب ليتحقق من صحة خبرهم، فلم تتمهل العامة وسعت في هدم الكنائس فوجدهم هجموا على كنيسة بجوار قناطر السباع، وكنيسة للأسرى في طريق مصر، ووقع النهب في دير نهيا بالجيزة، ودير بناحية بولاق التكرور بالجيزة، وخربوا

(٦٣) من قرى أعمال الغربية، أسسها الأمير شمس الدين سنقر السعدي(ت:٧٢٨هـ/١٣٢٧م) أيام الملك الناصر محمد وبالغ في تعميرها حتى أخذها السلطان منه، وجعلها من جملة البلاد السلطانية، وكان خراجها في سنة٧١٥هـ/١٣١٥م ثلاثون ألف دينار جيشي، كانت للديوان السلطاني في سنة٧١٥هـ/١٣١٥م، ثم أصبحت في سنة٧٧٧هـ/١٣٧٥م إقطاع للأمير برسباي المحمدي. انظر: ابن الجيعان: التحفة السنية، ص٧٠؛ ابن إياس(محمد بن أحمد الحنفي ت:٩٣٠هـ/١٥٢٤م): نزهة الأمم في العجائب والحكم، تحقيق: محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٢١٧.

(٦٤) هذه الكنيسة هدمتها العامة في سنة٧٥٤هـ/١٣٥٣م بسبب أن أحد النصارى شهد عند القاضي أن جده كان مسلم، فحكم القاضي بإسلام النصراني، وحبس ليسلم، لكن والي المحلة هربه ليلاً بسعي بعض النصارى، ولما علمت العامة بذلك ثاروا على الوالي وهزموه، ثم توجهوا إلى كنيسة النصارى وهدموها وحولوها مسجد. انظر: الحنفي: نيل الأمل، ج١، ص٢٥٨.

(٦٥) المقريزي: السلوك، ج٤، ص١٩٠.

كنيسة بحارة الفهادين بالقاهرة، وتجمعوا لتخريب كنيسة البندقانيين بالقاهرة فردهم الوالي عنها، وتمادى الأمر حتى عجز الحكام عن كفهم[٦٦]،

وفي أواخر هذا الشهر توجه الأمير صرغتمش إلى ناحية شبرا الخيام وهدم بها كنيسة كان فيها إصبع الشهيد، وأحضر الصندوق الذي به الإصبع وأحرق، وانتهت تلك العادة السيئة بعد أن فاض النيل بدون الإصبع، وكان الناس يجتمعون عند أوان النيل بشبرا وينصبون الخيام ويشربون الخمر ويخرجون عن الحد، فأراد السلطان والأمراء إنهاء تلك العادة السيئة [٦٧]، ويبدو أن هذه الكنيسة كلما هدمت قام النصارى ببنائها، مما يدفع الدولة إلى إعادة هدمها، ففي سنة٨٠٣هـ/١٤٠٠م ركب الأمير يلبغا السالمي[٦٨] إلى ناحية شبرا الخيمة، وهدم بها كنيسة كانت لهم وشدد على النصارى وكسر جرار الخمر التي كانت لهم[٦٩]، وفي رجب سنة٨٤٠هـ/١٤٣٦م توجه الأمير جاني بك الدويدار والقاضي عبد الباسط إلى شبرا الخيام فهدما الكنيسة المحدثة بها[٧٠]،

---

(٦٦) المقريزي: المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٤؛ الخطط، ج٣، ص٧٨٣؛ الحنفي: نيل الأمل، ج١، ص٢٦٧.

(٦٧) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٧٨٤؛ ابن قاضي شهبه(أبو بكر أحمد الأسدي ت:٨٥١هـ/١٤٤٨م): تاريخ ابن قاضي شهبه، ج٣، تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، ١٩٩٤م، ص٦٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج١، ص٢٦٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٥٦٦؛ نزهة الأمم، ص١١٥.

(٦٨) هو يلبغا السالمي الظاهري الحنفي اشتراه الظاهر برقوق، ولي نظر خانقاة سعيد السعداء، ثم الإستادارية الكبرى، وأبطل مظالم كثيرة، توفي سنة٨١٨هـ/١٤١٥م. انظر:السخاوي(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت:٩٠٣هـ/١٤٩٧م): الضوء اللامع، ج٥، ق١٠، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٨٩.

(٦٩) المقريزي: السلوك، ج٦، ص٣٩؛ الخطط، ج٣، ص٢٥٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٥، ق١٠، ص٢٨٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٩٤.

(٧٠) المقريزي: الخطط، ج٧، ص٨٠٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج١، تحقيق: السيد عبد الله بن أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م، ج٨، ص٤١٣؛ الصيرفي(على بن

وفي إطار التفتيش على الكنائس وهدم الزيادات الموجودة بها توجه عدد من القضـــاة بإذن السلطان إلى الكنيسة المعلقة، وهدموا الزيادات الموجودة بها(٧١).

وبالرغم من هذه الحوادث نجد نصـراني يشـكو إلى السـلطان القاضـي شـمس الدين محمد الدفري(ت:٨٢٨هـ/١٤٢٤م)- أحد نواب المالكية- فيأمر السلطان بإحضار القاضـي وبعد ثبوت الدعوى عليه ، يضُـربه ضـرباً مبرحاً ويرضـى النصـراني(٧٢)، كما أنصـف أحد عوام النصـارى من أحد رجال الدولة النصـارى وهو ميخائيل بن إسـرائيل النصراني(ت:٨٧٨هـــ/١٤٧٣م) في سنة٨٧٧هـــ/١٤٧٢م وضربه وغرمه الكثير من المال(٧٣)، وعندما مات شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني سنة٨٥٢هـــ/١٤٤٨م بكاه اليهود والنصـارى، وكان يوماً عظيماً على المسـلمين وأهل الذمة(٧٤)، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على العلاقة الحسنة بين المسلمين وأهل الذمة، وأن ما كان يحدث بين الحين والأخر من حوادث تعدي على الكنائس بغير حق لم يكن ســـوى تهور من قبل بعض العامة الذين لا يعرفون فقهاً ولا دينا، والدليل على ذلك أن حوادث التعدي على الكنائس في سنة٧٢١هـــ/١٣٢١م حدثت يوم الجمعة أثناء الصلاة، فكيف لمسلم عاقل

داود ت:٩٠٠هـــ/١٤٩٥م): نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١م، ص٤٠٧؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٤، ص٤٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٨٣.

(٧١) الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٥٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٠٤.

(٧٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٤٠٣.

(٧٣) الســخاوي(شـمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت:٩٠٣هـــــ/١٤٩٧م): الذيل التام، حوادث(٨٥١-٨٩٧هـ)، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، دار ابن العماد، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ص٢٦٣.

(٧٤) ابن تغري بردي(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م): حوادث الدهور على مدى الأيام والشـــهور، ج١، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص١٩٨.

يفهم دينه أن يترك صلاة الجمعة لأي سبب كان، فضلاً أن يكون ذلك من أجل التعدي على الكنائس. وكان يقودهم ويدفعهم لذلك بعض المنتسبين للتصوف الذين كان للعامة فيهم اعتقاد.

بعد فتنة سنة٧٥٥هـ/١٣٥٤م لم نعد نسمع عن حوادث كبرى من هذا النوع، وعدنا إلى الحوادث الفردية التي كان يثيرها أحد الأشخاص بين الحين والآخر، ففي سنة٧٨٠هـ/١٣٧٨م كانت واقعة هدم كنيسة بوجرج بناحية أبو النمرس بالجيزة، وقصتها أن رجل من الفقراء(المتصوفة) يسمى عبد الله الزيلعي بات بهذه الناحية، فسمع لنواقيس كنائسها صوتاً عالياً وقيل له أنهم يضربون بنواقيسهم عند خطبة الإمام بحيث لا تكاد تسمع إلى جانب المنكرات الأخرى، فوقف للسلطان الأشرف شعبان(٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٠-١٣٦٢م)، فلم يستجيب له، فتوجه إلى الحجاز وعاد بعد فترة وشكي مشكلة الكنيسة للأمير برقوق، فأمر المحتسب بالذهاب إلى الكنيسة والنظر في أمرها، فتوجه إليها وكشف أمرها وأخبره أهل القرية ما يقتضي عنده غلقها فأغلقها، فسعى النصارى في فتح الكنيسة وأنفقوا في ذلك مالاً كثيراً، فأخبر المحتسب الأمير برقوق بفعلهم هذا، فأمر بهدمهم فهدمت ثم أعيدت مرة أخرى(٧٥).

وفي إطار الكشف الدوري على الكنائس لضبط مخالفات البناء توجه الأمير سودون النائب ومعه القضاة الأربعة في شهر جمادى الآخرة سنة٧٨٦هـ/١٣٨٤م إلى

(٧٥) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨٢٥؛ السلوك، ج٥، ص٥٣-٥٤؛ درر العقود الفريدة، ج٣، ص٤٥٤؛ ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤، ص٣٣٦؛ إنباء الغمر، ص٢٧١؛ ابن قاضي شهبه: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج٣، ص٥٧٧؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٢، ص١٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٣٢.

الكنيسة المعلقة[٧٦] بمصر القديمة، وكشف عنها وأمر بهدم ما استجده النصارى بها من الأبنية[٧٧]، وفي سنة٨١٨هـ/١٤١٥م كان بالجيزة كنيسة للنصارى قيل للشيخ سليم أنهم جددوا فيها شيء كثيرا، فتوجه الشيخ إلى الكنيسة ومعه جماعة فهدموا ما جدد، فاستعان النصارى بأهل الديوان من القبط، فسعوا على الشيخ عند السلطان بأنه يفعل ما يريد بيده بغير حكم حاكم، فاستدعاه السلطان وأهانه، ثم استطاع النصارى بمساعدة بعض القضاة من إعادة ما تهدم[٧٨]، وهذا الفعل مشابه لما فعله نور الدين علي بن يعقوب البكري في سنة٧١٤هـ/١٣١٤م ولما خربت كنيسة مرقص الإنجيلي بعد سنة٨٠٠هـ/١٣٩٧م أمر السلطان بعمارتها مرة أخرى[٧٩].

وفي شهر ربيع الأول سنة٨٤٠هـ/١٤٣٦م سعى الشيخ ناصر الدين محمد بن علي بن الطبناوي(ت:٨٤١هـ/١٤٣٧م) في هدم دير المغطس بالوجه البحري، فأحضر أثناء وجوده عند السلطان في المولد النبوي محضراً يتضمن فيه أن النصارى يحجون إليه في كل عام، ويجتمع عنده من النصارى والمسلمين للفرجة والتجارة مالا يحصى حتى صاروا يضاهون بذلك أهل عرفة، ويلعنون فيه أكابر المسلمين كالصحابة خصوصاً خالد بن الوليد(رضي الله عنه)، بجانب ما يحدث فيه من المنكرات كالخمر

---

(٧٦) هي كنيسة على أسم السيدة مريم عليها السلام، تقع في مصر العتيقة بخط قصر الشمع، وهي جليلة القدر عند النصارى. انظر: المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨١١.

(٧٧) المقريزي:السلوك، ج٥، ص١٦٦؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٩٠؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١، ص٩٨؛ السخاوي: الذيل التام، حوادث(٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٣٣٣؛ وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج١، تحقيق: بشار عواد معروف وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٦٨؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٢، ص٢١٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٤٨.

(٧٨) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩، ص١٩٢؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٣، ص٢٩٦.

(٧٩) المقريزي: الخطط، ج٣، ص٨٢٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣، ص٧٤. وانظر: ترتون: أهل الذمة، ص٦٢.

وغيرها، فأفتى العلماء بهدم هذا الدير وإزالة تلك العادة، وفوض السلطان أمره إلى القاضي المالكي، فلم يتيسر له هدمه في هذا العام، وهدم في رمضان سنة٨٤١هـ/١٤٣٧م[٨٠].

كما أمر السلطان القضاة بالتوجه إلى الكنيسة المعلقة، والكنيسة المعروفة بشنودة في ربيع الأخر سنة٨٤٢هـ/١٤٣٨م، فكشفتا وهدم من المعلقة أشياء جددت مابين شبابيك وغيرها، وأُلزموا بتكملة هدم البناء المجدد الزائد عما سبق لهم من حكم نائب القاضي الحنفي بترميمه[٨١]. أما في سنة٨٤٤هـ/١٤٤٠م فقد رفعت شكوى إلى السلطان بأنه أُحدث بدير بساتين الوزير أبنية، فأمر السلطان القاضي الشافعي، ونائب القلعة بأن يتوجها يكشفا الأمر ويقوما بما يقتضيه حكم الشرع، فتوجها إلى الدير في طائفة من الناس، فوجدوا به جماعة من الأحباش ووجدوا النصارى قد بالغوا في تحصينه، وجددوا أمام الباب حوشا كبيراً مبني من الحجر، وعللوا ذلك بأن اللصوص قد تهجم عليهم، فقبلوا معذرتهم في التحصين لا في المحدث، فأمروا بهدم الحوش الذي بني، وإبقاء الترميم[٨٢].

كما قام الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائي الحنفي في سنة٨٤٥هـ/١٤٤١م بكشف أحوال الكنائس، فأغلق منها عدة لحين اتضاح أمرها، منها واحدة للملكيين وجد فيها دعائم بالحجر في صورة أعمدة، فادعوا أنها كانت ذات أعمدة رخام فاحترقت في

---

(٨٠) المقريزي: السلوك، ج٣، ص٨٠٣؛ ابن حجر: المصدر السابق، ج٨، ص٤٢١؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٣٨٢؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٢٥.

(٨١) ابن حجر: المصدر السابق ، ج٩، ص٤٥؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٥٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٣.

(٨٢) ابن حجر: المصدر السابق ، ج٩، ص١٣٦.

سنة٧٠٣هـ/١٣٠٣م، وقد أثبتوا ذلك في محضر عند القاضي جلال الدين القزويني، وأنه أذن لهم في ترميمها فرموها بالحجارة عوضاً عن الرخام(٨٣).

وفي جمادى الأولى سنة٨٤٩هـ/١٤٤٥م أمر السلطان قاضي القضاة الشافعي وكاتب السر أن يذهبا لكشف كنيسة النصارى الملكية بسبب ما بلغه أن بجانبها مسجد، وأن جدار الكنيسة مرتفع عن المسجد ويخشى سقوطه على المسجد، فذهبا وكشفا أمره ثم أمروا بهدمه(٨٤). كما أمر السلطان في جمادى الآخرة سنة٨٥١هـ/١٤٤٧م بهدم كنيسة المعلقة، لأنهم أعادوا ما حكم بهدمه في سنة٨٤٦هـ/١٤٤٢م وأحدثوا فيها الكثير من الأعمدة والترميمات التي لا تجوز وهذا نقض للعهد الذي التزموا به، فعقد بسبب ذلك مجلس وحكم بهدمها القاضي المالكي حسب مذهبه(٨٥)، فلما هدمت نقل جميع أنقاضها وأخشابها إلى المسجد المجاور لها(٨٦).

موقف ملك الحبشة من هذه الأحداث ورد دولة المماليك عليه:

تنوعت مواقف ملك الحبشة من هذه الأحداث ما بين اعتداء على الحدود الجنوبية للدولة المملوكية، وبين إرسال رسائل ترهيب تتضمن التضييق على مسلمي الحبشة، وقطع مياه نهر النيل عن مصر وغير ذلك، وكانت هذه المواقف رد فعل على

---

(٨٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩، ص١٦٩-١٧٠؛ السخاوي(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت:٩٠٣هـ/١٤٩٧م): التبر المسبوك في الذيل على السلوك، ج١، تحقيق: لبيبة إبراهيم مصطفى ونجوى مصطفى كامل، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٠٠؛ الذيل التام، حوادث(٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٦٣٥؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص١٥٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٣.

(٨٤) السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص٣٠٠؛ ابن شاهين: نيل الأمل، ج٥، ص٢٠٧.

(٨٥) للمزيد عن هذه الحادثة انظر: السخاوي: المصدر السابق ، ج٢، ص٢٥-٢٧.

(٨٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩، ص١٦٩-١٧٠؛ السخاوي: الذيل التام، حوادث(٨٥٠-٨٩٧هـ)، ص١٩؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٢٣٦؛ ابن إياس: المصدر السابق ، ج٢، ص٢٣٣.

أحداث الكنائس، وفي نفس الوقت كانت هذه الأفعال والتهديدات عامل في زيادة الشحن الطائفي والتعدي علي الكنائس سواء بحق أو بغير حق، ففي سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م هاجم ملك الحبشة أطراف بلاد السلطان ونهبوا أسوان، فلما علم الأمير برقوق بذلك أمر البطرك أن يكتب إليه يأمره بعدم التعرض لبلاد السلطان، فأرسل إليه يأمره بذلك(٨٧)، وفي سنة٨٢٢هـ/١٤١٩م أحضر السلطان بطرك النصارى بعد أن جمع القضاة والعلماء، وسأله عما يحدث لمسلمي الحبشة من اضطهاد، فأنكر البطرك علمه بذلك، وكانت هذه الأحداث سبباً في التشديد على النصارى في الشروط(٨٨).

كما أرسل تاجر من العجم منتم إلى الإسلام ظاهراً إلى ملوك أوربا في شهر صفر سنة٨٣٢هـ/١٤٢٨م يحثهم على القيام معه لإزالة دين الإسلام وأهله، وإقامة الملة النصرانية، حيث أنه قد عزم علي أن يسير من بلاد الحبشة في عساكره براً ويلتقي جموع الفرنجة في البحر فيخربوا سواحل المسلمين، وقد ذهب هذا التاجر إلى أوربا ودعاهم لذلك(٨٩)، ثم عاد عن طريق الإسكندرية ومعه بعض الرهبان، فوشي به أحد عبيده، فقبض عليه ومن معه وأرسل إلى السلطان، وضرب عنقه بعد أن ثبتت عليه البينة(٩٠).

وقد استجابت له قبرص حيث أرسلت خمس سفن في شهر شعبان سنة٨٣٢هـ/١٤٢٨م لمهاجمة ميناء الإسكندرية، وقد علم أهل الإسكندرية بذلك فاستعدوا

---

(٨٧) الحنفي: نيل الأمل، ج٢، ص١٨٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٨.

(٨٨) ابن حجر: المصدر السابق ، ج٧، ص٣٥١؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٢، ص٤٥٤؛ الحنفي: المصدر السابق ، ج٤، ص٣٩.

(٨٩) سوف يستجيب له الأوروبيين بقيادة الملك هنري الملاح بعد سقوط الأندلس، وسيرسل فسكودا جاما للدوران حول أفريقيا والوصول إلي الحبشة لتساعدهم في تطويق المسلمين والقضاء عليهم.

(٩٠) المقريزي: السلوك، ج٧، ص١٨٩،١٨٨؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص١٥٠.

لهم، وانتصروا عليهم[٩١]، وقد كانت هجمات هؤلاء القبارصة علي شمال مصر أحد الأسباب في ثورة عوام المسلمين علي النصارى، خاصة وأن بعض هذه الهجمات قد توغلت في البلاد، ففي سنة ٧٩٥هـ/١٣٩٢م هاجم القبارصة ناحية نستراوة[٩٢]، واستمر نهبهم فيها ثلاثة أيام، هذا بجانب الهجماتهم السابقة واللاحقة حتى فتحها السلطان برسباي(٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م) في سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م[٩٣].

أما في سنة٨٤١هـ/١٤٣٧م فقد وصل كتاب ملك الحبشة، وبصحبته هدية وكتاب مضمونه التودد والتوصية بالنصارى وكنائسهم[٩٤]، ثم أرسل كتاب آخر في سنة٨٤٧هـ/١٤٤٣م فيه تهديد لأهل مصر بأن يسد عنهم مجرى النيل بسبب البطرك والنصارى في مصر[٩٥]، وكان رد السلطان على هذه التصرفات أنه أمر بطرك اليعاقبة في سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م أن لا يولي أحد من ملوك الحبشة إلا بإذنه، وأرسل خطابا له يخبره فيه أن"نصارى مصر قد كثر تعديهم واستطالتهم ومبالغتهم في البناء، وإحداث الكنائس"[٩٦].

ورب قائل بأن المسيحيين في مصر في زمن المماليك مصريون مثل المسلمين، ومن ثم فإن لهم الحقوق نفسها. هذا الكلام صحيح في ضوء مفاهيمنا

---

(٩١) الصيرفي: المصدر السابق ، ج٣، ص١٥٩.

(٩٢) هي قصبة إقليم نستراوة، قدر خراجها في سنة٧١٥هـ/١٣١٥م ب١٦٥٠٠دينار جيشي، وهي لديوان الخاص. انظر: ابن الجيعان: التحفة السنية، ص١٣٧.

(٩٣) الصيرفي: المصدر السابق ، ج٣، ص٨٣، ٩٢.

(٩٤) المقريزي: السلوك، ج٧، ص٣٤٥؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان، ج٣، ص٣٩٨؛ السخاوي: التبر المسبوك، ج١، ص١٦٥-١٦٩؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص١٥.

(٩٥) الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص١٧٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٣٩.

(٩٦) السخاوي: الذيل التام، حوادث(٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٦٤١؛ الحنفي: نيل الأمل، ج٥، ص٢٥٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٦٥.

المعاصـــرة التي تتســـم بالعلمانية إلى حد كبير. بيد أنه ينبغي علينا أن نعيش الحدث التاريخي من داخله لكي نتفهمه بشـــكل يقربنا إلى الحقيقة قدر الإمكان، ويعني هذا أن نحاول أن نتمثل المفاهيم والقيم التي كانت تتحكم في الناس في تلك الفترة التاريخية، ومن العبث المضـــلل أن نحاول إلزام الناس في العصـــور الوســـطي بمثلنا وقيمنا، ونحاسبهم إذا لم يتصرفوا على أساسها لسبب بسيط هو أنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن هذه القيم والمفاهيم التي نطالبهم بها(٩٧).

ففي العصـــور الوســـطي كانت فكرة"الوطن" فكرة دينية بحتة، تتعلق بجماعة المؤمنين أكثر مما تتعلق بالأرض الجغرافية، أي أن الوطن الذي يجمع الناس في الحياة الدنيا ليس هو الأرض كتعريف جغرافي بقدر ما هو الدين والعقيدة التي تربط أبناء الأمة، وتعيش الأقليات الدينية في حماية جماعة المؤمنين، ويتمتعون بكافة حقوقهم بشرط ألا تعلو مكانتهم فوق مكانة المؤمنين.

صحيح أن هذه المفاهيم تبتعد عن روح الإسلام وموقف الشريعة من أهل الذمة، ولكن تراث الاحتكاك الحضاري بين المسلمين والغرب المسيحي بما تخلله من حروب طويلة وعنيفة، منها تلك السلسلة المعروفة بالحروب الصليبية، خلف شعوراً بالمرارة تجاه غير المسلمين، كما أن ثروات أهل الذمة التي كونوها بفضل عملهم في الجهاز الحكومي، والتدهور المســـتمر لجموع العامة من المســـلمين جعل الناس يعبرون عن موقفهم الاجتماعي المتعالي على غير المسلمين تعبيراً دينياً، وبعبارة أخرى فان العوامل الاقتصادية والاجتماعية قد ألبست ثوباً دينياً لتخلق هذا الموقف الاجتماعي، على الرغم من تعارضه مع الإسلام، وعلى هذا الأساس يمكن أن نفسر النظرة التي كانت تفترض

---

(٩٧) قاسم عبده قاسم: دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٨٧.

ألا يكون غير المسلمين في مكانة اجتماعية أعلى من المسلمين[٩٨]، وهذه هي فكرة ما يسمى بالشروط العمرية.

ومهما يكن من أمر، فإننا نحب أن نؤكد- مرة أخرى- أن أهل الذمة لم يتعرضوا للاضطهاد إلا في أوقات الشدة والفتن؛ وفيما عدا ذلك تشهد الكثير من الكتابات المعاصرة لتلك الفترة على أنهم تمتعوا في عصر المماليك بكثير من الامتيازات التي لم يكن يتمتع به كثير من المسلمين، ويصف ابن الأخوة(ت:٧٢٩هـ/١٣٢٨م) حال أهل الذمة في زمانه فيقول: إن دورهم صارت تعلوا على دور المسلمين ومساجدهم؛ وصاروا يدعون بالنعوت التي كانت للخلفاء ويكنون بكناهم فمن نعوتهم الرشيد وأبو الحسن؛ كما ركبوا مركوب المسلمين والبسوا أحسن ملبوسهم، وذلك تحت الرعاية السلطانية[٩٩]، وبعبارة أخرى فإن الفتن التي تقدمت الإشارة إليها ليس معناها أن الصلات الطيبة بين النصارى وإخوانهم المسلمين انقطعت تماماً في عصر سلاطين المماليك، فقد فضل كثير من المسلمين إرسال أبنائهم إلي مكاتب النصارى حتى يجيدوا الحساب، كما شارك العديد من المسلمين في أعياد النصارى مثل سبت النور ونحوه.

كما أن أهل الذمة قد شملتهم رعاية الدولة على الصعيد الاجتماعي وساكنوا المسلمين في المدن القديمة والأمصار الإسلامية وظلوا يحتفلون بأعيادهم في حرية تامة يشاركهم المسلمون هذه الاحتفالات في بهجة وسرور، لأنهم عاشوا مع الأقباط في بيئة مصرية واحدة ومناخ واحد، فيأكلون من خبزها ويشربون من نيلها ويستظلون بسمائها وتتجاور منازلهم وتتصافح قلوبهم. وعلى ذلك فإن البيئة المصرية الواحدة من شأنها أن تصنع

(٩٨) قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص٨٧؛ علي عبد الرحمن الطيار: حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط٢، ٢٠٠٦م، ص١٥٩.

(٩٩) ابن الأخوة(محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت:٧٢٩هـ/١٣٢٨م): معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: روين ليوي، مطبعة دار الفنون، كيمبردج، ١٩٣٧م، ص٤٢-٤٣.

موروثًا شعبيًا واحدًا .لذلك برزت أسماء مصرية كثيرة لأهل الذمة في مجالات مختلفة مؤكدة ما أتيح لهم من حرية التعليم والمشاركة الفعلية في مجتمع مصر المملوكية. ورغم أن الأعياد المسيحية كانت ذات طابع مسيحي، ويحتفل به الأقباط لإحياء مناسبات دينية ، إلا أن المسلمين غالباً ما كانوا يشاركون الأقباط في احتفالاتهم ويقدمون لهم التهنئة والهدايا في هذه المناسبات. وكان الخلفاء الفاطميون في معظم الأوقات يظهرون قدراً كبيراً من التسامح مع رعاياهم من القبط ويشاركونهم الاحتفال والابتهاج بأعيادهم، ويهبون لهم فيها الأكسية والأطعمة والأموال.

الخاتمة:

مما سبق يمكن أن نخرج بعدد من النقاط منها:

– أن الحروب الصليبية والتي انتهت بعد سقوط عكا سنة٦٩٠هـ/١٢٩١م في عهد الأشرف خليل، وهجمات القبارصة وغيرهم المتوالي على السواحل المصرية والشامية في إطار الحصار الاقتصادي على مصر، وهجمات ملك الحبشة على الحدود الجنوبية لمصر، كانت من العوامل المهمة التي ساهمت في زيادة التوتر ونموه بين المسلمين وأهل الذمة وبخاصة النصارى بحكم أن هؤلاء– الصليبيين والقبارصة والأحباش– كانوا على النصرانية، ولم تجد العامة متنفساً للتعبير عن هذا التوتر سوى الهجوم على الكنائس.

– كما أن ازدياد نفوذ النصارى وتأنقهم في الملبس والمسكن والمركب، وتعاليهم على عامة المسلمين– كما ذكرت الروايات التاريخية– ومبالغتهم في البناء، وإحداث الكنائس أدى إلى تعصب العامة ضد النصارى، خاصة وأنهم يعتقدون أن الدولة تحمي النصارى وتساعدهم علي التعالي على المسلمين، وهذا بالطبع ورثوه من أيام الفاطميين عندما

كانت لهم اليد العليا في شئون الدولة في ذلك الوقت، ولهذا كان يسمى العصر الذهبي لأهل الذمة، وبالطبع لم يجدوا مكان للتعبير عن غضبهم هذا سوي الكنائس.

– أن هناك طائفة من العامة لم يكن يعنيهم أمر الأديان في شـــيء، وإنما كان هدفهم الأول والأخير هو النهب، وكانوا ينتظرون مثل هذه الحوادث لنهب ما في الكنائس من كنوز وأموال، وكان يطلق على هؤلاء الزعر وأوباش العامة، ويطلق عليهم اليوم اســـم البلطجية.

– أفتى أهل العلم أن الكنائس المعلوم أنها محدثة في الإســـلام تهدم بالإجماع، والتي يشك فيها فضلاً عن أن يعرف أنها قديمة لا يجوز هدمها أو التعدي عليها، وبهذا أفتى شيخ الإسلام ابن دقيق العيد الشافعي، وابن نجيم المصري الحنفي وغيرهم.

– أفتى أهل العلم بهدم ما يتم زيادته في الكنائس من مباني وغير ذلك والذي كان يحدث كثيراً أثناء عمليات ترميم الكنائس التي كان يتم إجرائها بموافقة الفقهاء، وكان يتم إرسال حملات تفتيشية للكشف على الكنائس بين الحين والآخر وهدم ما أحدث بها، وقد ذكرنا من هذه الأمثلة الكثير.

– أن اختلاف العلماء حول فتح مصر صلح أم عنوة كان له أثر كبير في مجريات هذه الأحداث، فمن يرون أنها فتحت عنوة يفتون بهدم الكنائس الموجودة بأرض العنوه، وعلى هذا فإن كل حوادث التعدي علي الكنائس جائزة شرعاً، وهؤلاء كان لهم أتباع من العامة اقتنعوا بقولهم وعملوا بفتواهم في هدم هذه الكنائس، فيقول المقريزي:" وامتدت أيدي العامة إلي الكنائس وهدموا منها عدة كنائس بفتوى الشـــيخ نجم الدين بن الرفعة"، وإن كانت فتحت صلحاً وبعهد كما قال الفريق الأخر فهي لا تجوز شرعاً، وهذا الأمر ظل مثار جدل بين المؤرخين حتى العصر الحديث.

– أن اختلاف العلماء حول الكنائس الموجودة في القاهرة وغيرها من المدن التي بناها المسلمون هل هي قديمة قبل الفتح الإسلامي أم محدثة بعد الفتح؟ ومعلوم أن إحداث كنائس جديدة في الإسلام لا يجوز شرعاً كما ذكرنا سابقاً، كل هذا ساعد على وجود متنفس لهؤلاء العامة للقيام بهدم الكنائس في إطار شرعي بناء على من أفتى بأنها محدثة.

– أن هذه الحوادث لم تكن نتيجة تعصب الحكام، وإنما نتيجة تعصب العامة التي أثارتها الظروف المحيطة بها، والدليل على ذلك انتصار السلطان لهذا النصراني الذي اشتكى له تعدي أحد نواب المالكية عليه، فأمر بإحضاره وعُوقب عقاباً شديداً لما ثبتت عليه البينة، وقد أكد كل من لينبول، وموير على أن الناصر محمد كان رحيماً بالنصارى ويبذل جهده في إنصافهم، وإقامة العدل بينهم. أضف إلى ذلك أن هذه الحوادث كانت تحدث بصورة مباشرة نتيجة مشاجرة، أو خلاف بين أحد المسلمين وأحد النصارى، أو ما شابه ذلك ثم يتطور الأمر إلى فتنة بين الطرفين كما يحدث اليوم.

– أنه رغم هذه الحوادث إلا أن العلاقة بين جماهير المسلمين والنصارى كانت دائماً ولا تزال تتسم بطابع المودة والحسنى امتثالاً لأمر الله تعالي في حسن معاملة أهل الكتاب المقيمين بين ظهراني المسلمين، والدليل على ذلك مثلاً ما قام به العاملين بجامع عمرو بن العاص من إعارة بعض القناديل لقساوسة النصارى لإقامة صلواتهم. وعندما مات شيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني سنة٨٥٢هـ/١٤٤٨م بكاه اليهود والنصارى، وكان يوماً عظيماً على المسلمين وأهل الذمة.

– يجب أن نتنبه إلى أن هذه الحوادث التي جمعتها قد وقعت في دولة حكمت مصر ٢٧٥سنة وهي فترة طويلة جداً ولولا تسجيل المؤرخين لها لضاعت من ذاكرة التاريخ، ولو حسبنا عدد مثل هذه الحوادث منذ ١٧٤٠م حتى يومنا هذا، وهي فتره تماثل فترة

العصـــر المملوكي لوجدنا أن عدد مثل هذه الحوادث أكثر مما وقع في العصـــر المملوكي، بل انه في فترة ثورة ٢٥يناير حدثت ثلاث حوادث من مثل هذا النوع في إمبابة، ودهشـور، وأطفيح، كانت تبدأ بمشـاجرة عادية ثم تتحول إلى فتنة يشـعل نارها هؤلاء الفاسـقين شـاربي المخدرات، ومعهم بعض الجهلاء من العامة الذين سـرعان ما يتوجهوا إلى الكنائس لتخريبها ونهب ما فيها، ثم ما تلبث أن تعود الأمور إلى ســـيرتها الأولى، هذا مع العلاقة الحسـنة بين المسـلمين وإخوانهم النصـارى قبل وأثناء وبعد هذه الحوادث.

– أن الكثير من هذه الروايات التاريخية لهذه الحوادث التي ذكرناها تقريبية، فالمؤرخ لم يراها رأي العين بل يفصـــله عنها عشـرات السـنين، فالمقريزي مثلاً الذي روى حوادث سني ٧٠٠هـ، ٧٢١هـ، ٧٥٥هـ ولد سنة ٧٦٦هـ، وإنما هو يرويها عن من سمع بها ورأى بعض تفاصـيلها، وها نحن اليوم على ما معنا من إمكانيات كالتلفزيون مثلاً الذي ينقل الحدث مباشرة لا نستطيع الكشف عن ملابسات مثل هذه الحوادث إلا بعد إجراء التحريات ونحوها للوصـــول إلى حقيقة ما حدث، ويكفي للتدليل على ذلك ما حدث في كنيسة القديسين بالإسكندرية التي اتهم فيها بعض الأبرياء، ولم يُعرف بعض حقائق ما حدث فيها إلا بعد ثورة يناير.

في النهاية نوصـي أهلا بلادنا أن يتعلموا من دروس الماضـي، ويتفادوا أسـباب هذه الحوادث وأشباهها في حاضـرهم ليصـنعوا مستقبلاً قائم علي البر والقسط، والتآلف والتعاضـــد، ويتصـــدوا لمن يعبث بأمن هذا الوطن ووحدته، ويحاول اللعب على وتر الطائفية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا المصادر:

ابن الأخوة(محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت:٧٢٩هـ/١٣٢٨م):

– معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق: روين ليوي، مطبعة دار الفنون، كيمبردج، ١٩٣٧م.

الإدفوي(كمال الدين جعفر بن ثعلب الشافعي ت:٧٤٨هـ/١٣٤٧م):

الطالع السعيد الجامع لنجباء الصعيد، تحقيق: سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م

ابن إياس(محمد بن أحمد الحنفي ت:٩٣٠هـ/١٥٢٤م):

–بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج١، ق١، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.

–نزهة الأمم في العجائب والحكم، تحقيق: محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م

البلاذري(أحمد بن يحيي بن جابر ت:٢٧٩هـ/٨٩٢م):

فتوح البلدان، تحقيق: أيمن محمد عرفة، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).

ابن تغري بردي(جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت:٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):

حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور، ج١، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٩٠م

المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ج٨، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٩٩٩م

ـــــــــــــــ: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، تحقيق: فهيم محمود شلتوت وجمال محمد محرز، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٩م.

ـــــــــــــــ: ابن تيمية(٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) أحمد بن عبدالسلام الحرانى: رسالة في الكنائس، تحقيق: علي بن عبد العزيز الشبل، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٥م.

الجزري(شمس الدين محمد بن محمد ت: ٨٣٣هـ/١٤٢٩م):

حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأعيان والأكابر من أبنائه، ج٢، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

ابن جماعة (بدر الدين ت:٧٣٣هـ/١٣٣٣م):

تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، نشر رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، قطر، ط١، ١٩٨٥م.

ابن حجر(شهاب الدين أحمد بن على العسقلاني ت:٨٥٢هـ/١٤٤٢م):

إنباء الغمر بأنباء العمر، ج١، تحقيق: السيد عبد الله بن أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج٢، تحقيق: سالم الكرنكري، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣م.

الحنفي(عبد الباسط بن خليل بن شاهين الملطي ت:٩٢٠هـ/١٥١٤م):

نيل الأمل بذيل الدول، ج١، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

الدواداري(أبو بكر بن عبد الله بن أيبك ت: ٧٣٦هـ/١٣٣٥م):

كنز الدرر وجامع الغرر، ج٩(الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر)، تحقيق: هانس روبرت رويمر، المعهد الألماني للآثار، القاهرة، ١٩٧١م.

ابن الرفعة(أحمد بن محمد بن علي بن حازم البخاري الشافعي ت:٧١٠هـ/١٣١٠م):

النفائس في أدلة هدم الكنائس، مخطوطة بالمكتبة الأزهرية، رقم٣٣٧٩٧٤.

السخاوي(شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ت:٩٠٣هـ/١٤٩٧م):

التبر المسبوك في الذيل على السلوك، ج١، تحقيق: لبيبة إبراهيم مصطفى ونجوى مصطفى كامل، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٢م

ـــــــــــ: الذيل التام، حوادث(٨٥١-٨٩٧هـ)، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، دار ابن العماد، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

ـــــــــــ : الذيل التام، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج١، تحقيق: بشار عواد معروف وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥م

ـــــــــــ: الضوء اللامع، ج٥، ق١٠، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.

السيوطي(جلال الدين عبد الرحمن بن محمد (ت:٩١١هـ/١٥٠٥م):

حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، تعليق: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت)

الشوكاني(محمد بن على ت:١٢٥٠هـ/١٨٣٤م):

البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع، ج١، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.

الصيرفي(على بن داود ت:٩٠٠هـ/١٤٩٥م):

نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج٣، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١م

الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير ت:٣١٠هـ/٩٢٢م):

تاريخ الأمم والملوك، ج٢، تحقيق:مصطفى السيد وطارق سالم، المكتبة التوفيقية، (د.ت)

ابن عبد الحكم(عبد الرحمن بن عبد الله ت:٢٥٧هـ/٨٧٠م):

فتوح مصر وأخبارها، تحقيق: محمد صبيح، (د.ت) مكان النشر.

ابن العماد(عبد الحي بن أحمد الحنبلي ت: ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م):

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٨، تحقيق: محمود الأرناءوط، دار بن كثير، دمشق، ط١، ١٩٩٣م

ابن قاضي شهبة(أبو بكر أحمد الأسدي ت:٨٥١هـ/١٤٤٨م):

تاريخ ابن قاضي شهبه، ج٣، تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق، ١٩٩٤م،

القرافي(بدر الدين ت:١٠٠٩هـ/١٦٠٠م):

الدرر النفائس في شأن الكنائس، تحقيق: حسن حافظي علوي، دار أبي قراق، الرباط، (د.ت).

ابن القيم(شمس الدين محمد بن أبي بكر ت:٧٥١هـ/١٣٥٠م):

أحكام أهل الذمة، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

الكندي:

الولاة والقضاة، ت: رفن كست، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م

الماوردي(أبو الحسن على بن حبيب البصري ت:٤٥٠هـ/١٠٥٨م):

الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق: عماد ذكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (د.ت).

المفضل ابن أبي الفضائل(ت: ٧٥٩هـ/١٣٥٨م):

النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ بن العميد، ج٣، تحقيق: بلوشيه أدغار، باريس، ٢٠٠٤م.

المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي ت: ٨٤٥هـ/١٤٤٢م):

السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروتَ، ط١، ١٩٩٧م.

ـــــــــــــ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج٣، تحقيق: محمد زينهم عزب، ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.

ـــــــــــــ: المقفى الكبير، ج٢، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩١م.

المنصوري(بيبرس ت: ٧٢٥هـ/١٣٢٤م):

التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧م.

ـــــــــــــ: زبدة الفكر في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد ريتشاردز، مؤسسة حسيب درغام، بيروت، ط١، ١٩٩٨م .

ـــــــــــــ: مختار الأخبار، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م.

ابن نجيم(زين الدين إبراهيم بن نجيم الحنفي المصري ت:٩٧٠هـ/١٥٦٢م):

رسالة في الكنائس المصرية، ضمن كتاب الرسائل الزينية في مذهب الحنفية، تحقيق: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

ابن النقاش(شمس الدين محمد بن علي المغربي المصري ت:٧٦٣هـ/١٣٦٢م):

المذمة في استعمال أهل الذمة، تحقيق: إبراهيم زكريا، دار الراية، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

النويري(شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت: ٨٣٣هـ/١٣٣١م): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.

ياقوت الحموي(شهاب الدين بن عبد الله الحموي ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م):

معجم البلدان، ج١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

اليونيني(قطب الدين موسى بن محمد ت:٧٢٦هـ/١٣٢٦م):

ذيل مرآة الزمان، ج٣، تحقيق: وزارة التحقيقات والأمور الثقافية بالهند، دار المكتب الإسلامي، القاهرة، ط٢، ١٩٩٢م.

ثانيا المراجع:

ترتون:

أهل الذمة في الإسلام، ترجمة: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٤م.

ستانلي لينبول:

سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م.

سعيد عبد الفتاح عاشور:

المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).

علي إبراهيم حسن:

دراسات في تاريخ المماليك البحرية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٤٨م.

علي عبد الرحمن الطيار:

حقوق غير المسلمين في الدولة الإسلامية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط٢، ٢٠٠٦م.

قاسم عبده قاسم:

أهل الذمة في مصر في العصور الوسطي دراسة وثائقية، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف، ١٩٧٩ م.

دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.

ـــــــــــــــ: اليهود في مصر من الفتح العربي حتى الغزو العثمانى ، ط١ ، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٧ م.

محمد حميد الله:

الوثائق السياسية في العهد النبوي والراشدين، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م

محمد فتحي الزامل:

الحصار الاقتصادي علي مصر أواخر العصور الوسطى(١٢٩١-١٥١٧م)، المجلس الأعلى للثقافة،القاهرة، ٢٠٠٩م.

محمد قنديل البقلي: مصطلحات صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٤م.

وليم موير:

تاريخ دولة المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م .

The State's Role in Confronting Violence and Counter-Violence in Egypt During the Mamluk Sultanate

648-923 AH / 1250-1517 AD

abstract

The importance of this research lies in clarifying the role of the state in confronting violence and counter-violence from both sides, so that the country can resume its social life as it was without disruption. This may be a new topic in the field of academic research, especially since previous studies have discussed its political and military path extensively. Although some of them touched on its civilizational aspect, they also discussed its periods of strength and the rise of the state.However, it neglected to discuss its periods of weakness and setbacks, and such aspects remained a part of forgotten history that has not received the utmost attention. This topic can be addressed through several points: the religious component of Egyptian society during the Mamluk era, the relations between the people of Mamluk Egypt, Causes of violence and counter-violence according to the causes, events, and results of the year 700 AH/1300 AD, the disturbances of the year 721 AH/1321 AD and the violence and counter-violence it witnessed, its effects and results, and the state's role in dealing with it; the concept of the Cairo fire of 721 AH/1321 AD, the unrest and counter-violence of the year 755 AH/1354 AD and the state's response to it, the position of the King of Abyssinia on these events and the response of the Mamluk state to it.

Keywords: violence, anti-Mamluk state,Egypt